الفصل الثاني عشر

كيف السبيل إلى العودة؟

" بعد التحولات التي طرأت على منظومة العلاقات الدولية المعاصرة أصبحت النظريات الأيديولوجية غير ذات أهمية. . . وفيما يتعلق بالسياسة فإن روسيا كانت دومًا وستظل شريكًا مهمًا في عملية السلام في الشرق الأوسط. وأخذًا في الاعتبار استقرار هذا البلد وعلاقاته الودية مع العالم العربي، وكذا العلاقات المتطورة بين روسيا وإسرائيل، فإنها تستطيع الإسهام بقوة في تحقيق الاستقرار في المنطقة."

عمرو موسى، وزير الخارجية المصري ثم الأمين العام لجامعة الدول العربية.

شهد العقد الأول من القرن الحالي توجهات متناقضة على الساحة العالمية، وهو ما كان له تأثير وانعكاس على سياسة روسيا في الشرق الأوسط والأدنى وشمال إفريقيا.

فمن ناحية كانت تحولات العولمة تجري على قدم وساق، حيث تغير الهيكل الاقتصادي والاجتماعي للعالم أجمع بفضل قاعدة تكنولوجيا المعلومات، وتنامي دور وسائل الإعلام والإنترنت وتضاعف نقل الأموال عبر الحدود وكذا السلع والبشر. ازدادت أهمية بلدان المحيط الهادئ وآسيا، ولم يعد العالم يخضع لقطب أو مركز واحد. استطاعت روسيا دعم مؤسسات الدولة في الداخل وتطوير اقتصادها بعد سنوات التسعينيات الصعبة وانتهجت سياسة الاندماج في العالم بوصفها أحد مراكز الثقل فيه، وتطالب بأن تأخذ دول العالم في حسبانها مصالحها الوطنية وأولوياتها وأهداف أمنها القومي.

ومن ناحية أخرى سعت الولايات المتحدة الأمريكية إلى دعم مركزها في زعامة العالم أو بعبارة أخرى هيمنتها على العالم معتمدة على تفوقها العسكري والمالي والاقتصادي والمعلوماتي وفي كم الاختراعات. وقد انعكس ذلك في توسع الناتو ومحاولة حل الأزمات عن طريق القوة. خضع القادة الأمريكيون لفترة لنظرية المحافظين الجدد. صرح هؤلاء بضرورة تحقيق الزعامة الأمريكية وهيمنة النظم السياسية والاجتماعية الأمريكية وأن العالم يتوجب عليه اتباع النموذج

الأمريكي في الديمقراطية وفرض هذا النموذج بالقوة إذا دعت الضرورة على دول العالم.

والجدير بالإشـــارة هنا أن هناك عددًا من أتباع نظريات **تروتسسكي** قد تحولوا لاحقًا إلى مناصري نظرية المحافظين الجدد، وقام هؤلاء بتحويل معتقداتهم السابقة وأفكارهم عن تصدير الثورة الاشـــتراكية إلى دعوات رســـولية لتصدير القيم البرجوازية الأمريكية بكل السبل بما فيه القوة.

وقد أدت أحداث 11 سبتمبر 2001 إلى تحويل هذه المعتقدات الأيديولوجية إلى ممارسة سياســـية للإدارة الأمريكية بما فيها في الشرق الأوسط والأدنى. وشغل كبار المحافظين مناصب رفيعة ونافذة في إدارة الرئيس **بوش الابن** ونذكر منهم **رامسفيلد وفولفوفيتس وبيرل**.

ولاحقًا كتب **يفجيني بريماكوف**: ''لقد منحت الولايات المتحدة الأمريكية لنفسها الحق في تحديد أي دول تمثل تهديدًا للأمن القومي وبدون قرار من مجلس الأمن، ومن ثم وبشـــكل استخدام القوة ضد هذا البلد. كان المحافظون الجدد في أمريكا هم من صاغوا هذه النظرية''[1].

وقد أدى التقارب والدفء في العلاقات الروســـية الأمريكية واستعداد روسيا إلى التعاون في مكافحـــة الإرهاب الدولي بعد أحداث ســـبتمبر 2011 إلى نتائج أقل من المتوقع. كان هناك تبادل للمعلومات بين جهازي المخابرات، ودعمت روســـيا الحملة العسكرية الأمريكية في أفغانســـتان. كما أنه تم احتلال كابول من قبل قوات شمال الأطلســـي الذي تلقى دعمًا عسكريًّا روسيًّا وإيرانيًّا. وكانت المؤن الأمريكية المرسلة إلى القوات الأمريكية في أفغانستان تمر عبر الأراضي الروسية. غير أن الأمر لم يتطور أكثر من ذلك. فقد بقيت واشنطن تفسر كلمة ''**تعـــاون** '' على النحو التالي: '' إننا نعي أفضل من غيرنا ما يتوجب علينا فعله. ومهمتكم أن تسيروا خلفنا. ومن الأفضل أن تفعلوا ذلك دون طرح أي أسئلة. وعندها سيكون التعاون فيما بيننا دائمًا ومستمرًّا، وربما يتحول إلى تحالف. وحينها يتوجب عليكم التصرف وفق قواعد الديمقراطية والأخلاق''.

وفي ظـــل تجاهلها لقرارات مجلس الأمن، قامت الولايات المتحدة الأمريكية بالعدوان على العراق، واحتلال أراضيه في عام 2003 مســـتخدمة حججًا ومبررات زائفة. وعندما لم تعثر هناك على أســـلحة دمار شـــامل أصبحت الإدارة الأمريكية تبرر حملتها بأنها تهدف منها إلى دعم الديمقراطية في هذا البلد ونشر تجربة ''**الديمقراطية الناشئة**'' لهذا البلد الصغير في المنطقة بأكملها.

وإذا ما طبقنا ذلك على الشـــرق الأوســـط والأدنى وشمال إفريقيـــا، فقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية 2003 بطرح مشـــروع ''**الشـــرق الأوســـط الكبير**'' وذلك في

فترة **بوش الابن** ثم أدخلت تعديلاً بسيطًا عليه ليصبح ''**الشرق الأوسط الجديد**'' وكان ذلك على لسان وزيرة الخارجية **كونداليزا رايس**. وتمثل جوهر هذا المشروع في تغيير الأنظمة الحاكمة، وتطبيق المبادئ الديمقراطية وفق النموذج الأمريكي.

وكان من الواضح أن المنطقة التي تحكم أغلب دولها أنظمة قمعية وحيث لا تحترم حقوق الإنسان وحيث يلتهم الفساد وينتشر في كافة المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتعيش الشعوب في فقر وتطالب الطبقة المثقفة بإحداث تغييرات، في حاجة إلى إصلاحات جذرية. ولكن عن أي إصلاحات نتحدث؟ وبأي طريقة يمكن تطبيقها؟ وما المدة اللازمة لتطبيق ذلك؟ ومن المخول بالقيام بذلك؟ وكانت أولى محاولات تطبيق مبادئ الديمقراطية الغربية هي الانتخابات التي جرت بأراضي السلطة الفلسطينية والتي فازت فيها **حركة حماس** وهي منظمة متطرفة تصفها واشنطن بالإرهابية.

وأدى احتلال العراق إلى انتشار الفوضى، وأصبح هذا البلد خارج السيطرة واندلعت حرب أهلية وتحول النصر الأمريكي العسكري إلى فشل ذريع. كان الرئيس بوش مضطرًّا إلى تنحية المحافظين الجدد عن إدارته وحاول أن يجد مخرجًا من المستنقع العراقي. إلا أن ذلك لم يتحقق إلا في عصر الرئيس **أوباما**.

ولعل خطاب الرئيس **أوباما** الشهير في عام 2009م بالقاهرة عن ضرورة بناء تعاون بين واشنطن والعالم الإسلامي مع احترام القيم الإسلامية وتحقيق التسوية الشرق أوسطية وتحقيق التقارب بين الفلسطينيين والإسرائيليين كان من وجهة نظر الكثيرين مجرد تصريحات دعائية. ولكن هذا الخطاب في حقيقة الأمر كان يعني انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من أيديولوجية المحافظين الجدد نحو واقعية كبيرة واستباق لرفض إرسال القوات الأمريكية في مناطق النزاعات، وانسحاب القوات المحتلة من العراق وأفغانستان.

وفي بداية العقد الأول من القرن الحالي سعت روسيا إلى تجنب المواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية ولو بالتصريحات، وحاولت إرساء حوار مع واشنطن والناتو بشكل عام. إلا أن تصرفات روسيا والإجراءات التي اتخذتها لحماية مصالحها الوطنية بما فيها في الشرق الأوسط والأدنى قد أثارت حفيظة واشنطن وبعض العواصم الغربية، وأضافت المزيد من السم في تغطية وسائل الإعلام الغربية للسياسة الروسية وروسيا عمومًا.

obeikandl.com

وأكثر من ذلك استمر الناتو في التوسع والاقتراب أكثر من حدود روسيا. كما استمرت المساعي لتوسيع حدوده إلى أوكرانيا واستخدام القوة الناعمة في نشر مشاعر **الروسوفوبيا** بين سكان هذا البلد. وقد رأى القادة الروس في خطط بناء منظومة دفاع مشترك محاولة منهم لنزع قدرات روسيا العسكرية والاستراتيجية.

كان رفض روسيا لسياسة واشنطن في نظر الإدارة الأمريكية عودة إلى فترة الحرب الباردة. وفي عام 2006م وقبيل قمة ''**الثمانية**'' في **سان بطرسبورج** أطلق نائب الرئيس الأمريكي تصريحًا بدأ كإنذار إلى الروس: يجب على روسيا أن تعود إلى نهج الديمقراطية ''أي أن تسير وفق الطريق الذي تحدده أمريكا أو أن تصبح عدوًّا.''[2] وتحفظت موسكو ولم تقم بالرد على هذا التصريح.

وبعد مرور عام على صوت روسيا أثناء اجتماع في **ميونيخ** حينما تحدث الرئيس **بوتين** وسمى الأمور بمسمياتها وتحدث عن المعايير المزدوجة. كما صرح في الوقت نفسه عن استعداد روسيا لتوسيع التعاون مع الغرب إذا ما أبدى الغرب إرادة سياسية كافية لتحقيق ذلك.[3] والجدير بالذكر أنه بعد هذا التصريح توجَّه **بوتين** إلى الشرق الأوسط وقام بزيارة المملكة العربية السعودية.

وانطلاقًا من الواقع الدولي السائد حينها نحاول هنا استعراض العلاقات بين روسيا الاتحادية وبلدان المنطقة في العقدين الأخيرين أي قبيل الاهتزازات العنيفة التي عاشتها منطقة العالم العربي تحت مسمى ''**الربيع العربي**'' أو ''**الفتنة العربية**''.

مساعي الحفاظ على العراق بوصفه شريكا

ومن وجهة نظر **موسكو** كانت **واشنطن** إبَّان حملتها العسكرية على العراق في التسعينيات تتجاهل بشكل متعمد فرص الحل السياسي وتعمق من الأزمة. كما أن القصف الأمريكي البريطاني للعراق قوض منظومة الأمن الدولي وخلق سوابق خطيرة. كان رأي **موسكو** والجهود الدبلوماسية الروسية لا تحظى بالاهتمام بل تم تجاهلها وهو ما أدى إلى أن يخيم الحزن وخيبة الأمل على العلاقات الروسية الأمريكية.

وفي مايو 1999م قدمت كل من الصين وروسيا وفرنسا مشروع قرار لمجلس الأمن يتم بموجبه استبدال لجنة اللجنة الخاصة لنزع أسلحة العراق بلجنة جديدة للمراقبة والتفتيش كحل

وسط للأزمة مع العراق. وتم تشكيل اللجنة إلا أن **صدام حسين** رفض استقبالها. ثم أخذ يماطل في السماح للمفتشين بدخول العراق ووضع العراقيل أمامهم وأعاق عملهم ما استفز واشنطن وبريطانيا ودفعهما إلى توجيه ضربات عسكرية. ومن الصعب القول بثقة ماذا كان يأمل **صدام حسين** من كل هذا.

كانت روسيا خارجة للتوِّ من أزمة اقتصادية ولم تكن تريد الدخول في مواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها حتى ولو بالكلمات والتصريحات إلا أنها سعت إلى عدم السماح بتكرار التدخل الأمريكي في العراق. وواصل الرأي **بوتين** ووزير الخارجية **إيجور إيفانوف** النهج السابق لروسيا تجاه الأزمة العراقية غير أنهما كانا أكثر حذرًا في التصريحات نظرًا لصعوبة الوضع الداخلي في روسيا. حاولت الدبلوماسية الروسية طوال الوقت دفع العراق إلى التعاون مع لجنة المفتشين.[4]

دار حديث أيضًا عن المصالح الاقتصادية الكبيرة. قدم العراق وعودًا بالبدء في دفع جزء من الديون الضخمة (بالمليارات) لروسيا بعد إلغاء العقوبات المفروضة عليه. وسعت روسيا إلى الحصول على حصتها من الغنيمة في المنطقة التي تحتوي على أكبر آبار النفط في العالم، وقامت بالتوقيع بالأحرف الأولى على عدد من الاتفاقيات ذات الصلة.

ومع نهاية التسعينيات كانت روسيا تستورد 40 % من النفط العراقي ومن ثم تعيد بيعه. وكان جزء كبير من الدخل لا يذهب إلى الخزانة الروسية بل إلى سداد **أوف شور**. ولكن لم تكن **موسكو** تشك أبدًا في أن واشنطن تسعى إلى ضم العراق إلى الفضاء الأمريكي وخلع **صدام حسين** والسيطرة على هذا البلد الغني بالنفط.

وتواصل تبادل الزيارات والوفود بين البلدين بشكل مكثف وبما فيها الوفود البرلمانية. بالطبع لم يكن بمقدور روسيا إلغاء العقوبات المفروضة على العراق، وهو ما أثار غضب بغداد؛ ولذا كان تنفيذ المشروعات الاقتصادية الكبرى ودفع الديون يتوقف على إلغاء العقوبات.

وفي فبراير 2001م قامت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا مرة أخرى بتوجيه ضربات جوية إلى الرادارات العراقية ومنظومات الدفاع الجوي. وفي تلك الفترة تعالت الأصوات في مجلس **الدوما** الروسي التي تطالب بإلغاء العقوبات على العراق من جانب روسيا. غير أن الوضع الضعيف للدولة لم يساعد في اتخاذ قرارات حاسمة أو تبني المواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية وتوجب على روسيا التعامل مع الواقع السياسي والاقتصادي. وربما كان

obeikandi.com

البعض في **موسكو** على استعداد لدعم العراق ولو على حساب تحسن العلاقات مع واشنطن غير أن الأخيرة لم تهتم بهذا الأمر حتى بعد الاعتداءات الإرهابية في 2001م.

كان **بوش** يستعد للانتخابات الرئاسية في 2004، وكان في حاجة ماسة إلى نصر عسكري. وبدا العراق الهدف الأمثل.[5] وأكدت الإدارة الأمريكية وجود أسلحة كيميائية وبيولوجية وحتى نووية في العراق وأنه يمثل تهديدًا خطيراً لجيرانه وللمصالح الأمريكية في المنطقة وأنه يرتبط بعلاقات وثيقة مع تنظيم القاعدة وأنه ربما تورط في الاعتداءات الإرهابية في 11 سبتمبر 2001م.

وفي 20 نوفمبر 2001م وجه الرئيس **بوش** إنذاراً إلى **صدام حسين** وأن عليه أن يسمح بعودة المفتشين الدوليين التابعين للأمم المتحدة فورا أو يدفع ثمن وعواقب عدم تنفيذ ذلك. [6] وفي تلك اللحظة بدا أن الحرب في أفغانستان قد انتهت وأن الولايات المتحدة أطلقت يدها لإشعال حرب جديدة.

قام المسؤولون الروس عبر القنوات الدبلوماسية وعبر الإعلام الرسمي بالتأكيد على عدم وجود أدلة على امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل أو على ارتباط العراق بتنظيم القاعدة أو تورط **صدام حسين** في الاعتداءات الإرهابية ضد الولايات المتحدة الأمريكية. غير أنه بالنسبة لواشنطن كان الهدف الرئيس هو خلع **صدام حسين**.

وفي خطابه أمام **الكونجرس** في 29 يناير 2002م أعاد **بوش** الحديث عن التهديدات القديمة التي يمثلها العراق والدول التي تقف بجانبه. كان من الواضح أن **صدام حسين** يجب أن يقدم تنازلات. كانت الظروف مهيأة لاندلا ع حرب ثانية في الخليج، وكان ذلك من شأنه أن يوجه ضربة جديدة للمصالح الروسية. لكن روسيا كانت عاجزة وتفتقد إلى القدرة على إيقاف الاعتداء أحادي الجانب من جانب الولايات المتحدة الأمريكية ضد العراق. [7] واكتفت **موسكو** بالتصريحات والتعليقات المنتقدة.

وفي 16 يوليو 2002م استنكرت روسيا الضربات الأمريكية والبريطانية الجديدة ضد المواقع العراقية والتي تصادفت مع العيد الوطني للعراق. وبعث الرئيس **بوتين** ببرقية إلى **صدام حسين** هنأه فيها بهذه المناسبة وتمنى عليه بصفة خاصة أن يتخذ كافة الإجراءات والجهود لتجنب التدخل العسكري، وأن السبيل إلى ذلك هو إعادة المفتشين الدوليين التابعين للأمم المتحدة. [8]

obeikandl.com

وفي 17 يوليو 2002 صرح وزير الخارجية الروسي **إيجور ايفانوف** أن روسيا لن تدعم واشنطن في مطالبها بخلع **صدام حسين**.[9] وحذرت روسيا مرة أخرى من خطورة تصعيد الوضع وأن هذا من شأنه أن يضر بمنظومة الأمن في المنطقة. وتجاهل المسؤولون الأمريكيون التصريحات الروسية وهم على ثقة من أن روسيا ليس بمقدورها أن تقوم بما هو أكثر من التصريحات وأنه ليس بمقدورها اتخاذ أي إجراءات على الأرض.

وفي 11-12 أكتوبر 2002م وافق مجلس النواب ثم الكونجرس الأمريكي على قرار يسمح للرئيس بإعلان الحرب على العراق دون موافقة الأمم المتحدة.

وفي بداية أكتوبر 2002م قامت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بطرح مشروع قرار على مجلس الأمن حول العراق يسمح بالقيام بعمليات عسكرية في حال رفض **صدام حسين** التعاون مع لجنة المفتشين. وقد صوتت روسيا والصين وفرنسا ضد القرار. وبعد مناقشات طويلة أصدر مجلس الأمن في 8 نوفمبر 2002 القرار رقم 1441 والذي لم يسمح باستخدام القوة العسكرية بشكل آلي ضد العراق.

كانت الحرب على الأبواب رغم كل ذلك وسمح **صدام حسين** لممثلي لجنة المفتشين الدوليين بالبدء في العمل في العراق. وبعد فترة أرسل هؤلاء بتقريرهم الذي أفاد بعدم وجود أي أدلة على امتلاك العراق أسلحة دمار شامل أو تكنولوجيا تصنيعها. وتجاهلت الولايات المتحدة الأمريكية ببساطة هذا التقرير وواصلت التأكيد على صحة الحقائق التي تملكها، وفي الوقت نفسه كانت تضاعف من حجم قواتها في المنطقة.

وكان هناك تحليل مستمر لتوجهات الرأي العام الأمريكي في الداخل من عام لآخر. ففي فبراير 2003م قدم **كولين باول** (وزير الخارجية الأمريكي في تلك الفترة) أمام مجلس الأمن ما ادعى أنه دليل على نشاط نووي سري في العراق. وكان الدليل عبارة عن **أمبول** يحتوي على الجمرة الخبيثة. كان الأمر يبدو هزليا بامتياز. رفضت روسيا وفرنسا والصين هذا الطرح وتلك الادعاءات. وفي عام 2004م اعترف **باول** أن المعلومات التي توفرت لديه حينها لم تكن دقيقة في بعضها وزائفة في البعض الآخر.

وفي 18 سبتمبر 2002م أبلغ رئيس المخابرات الأمريكية **جورج تينيت** الرئيس **بوش** بأن المعلومات الواردة من مقربين من **صدام حسين** تفيد بأن العراق لم يمتلك يومًا ما أسلحة دمار شامل.[10]

obeikandl.com

لم يتم إبلاغ **الكونجرس** بهذه المعلومة. وقام المركز الأمريكي للمسؤولية المدنية بالتعاون مع مؤسسة استقلال الصحافة بإجراء دراسات توصلت إلى نتيجة مفادها أن قيادة الولايات المتحدة الأمريكية قد أصدرت (935) تصريحًا حول العراق في الفترة بين سبتمبر 2001 وسبتمبر 2003م. [11] وأن هذه التصريحات كانت لا تتفق وواقع الأحداث وساعدت على تشويه الحقائق وتزييفها. وقد تحدث الرئيس الأمريكي الحالي **دونالد ترامب** في أثناء حملته الانتخابية عن ارتكاب الرئيس **بوش** لجريمة الكذب حينما تحدث عن تبريره لحرب العراق. [12]

ومهما حدث فقد كان الرأي العام الأمريكي الداخلي والكونجرس الأمريكي قد تم تعبئتهم بشكل كامل لخوض الحرب. وكانت روسيا تعتقد أن **صدام حسين** يجب أن يقدم تنازلات. وكانت الحرب الثانية في الخليج تلوح في الآفاق.

وفي 24 نوفمبر 2002م قام الرئيس **بوش** بزيارة لمدينة **سان بطرسبورج** حيث حاول **بوتين** إقناعه بعدم البدء في الحرب دون موافقة مجلس الأمن. وبقي الموقف الروسي كما كان في السابق وبقيت روسيا تبحث عن سبل للحل السياسي في إطار مجلس الأمن. كانت القيادة روسيا تتفهم أن الحرب لا محالة قادمة ولكنها لم تكن ترغب في مواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية والغرب.

وفي 6 فبراير 2003م رفض مجلس الأمن (بمعارضة 3 من أعضائه الدائمين) اتخاذ قرار يسمح بالتدخل العسكري في العراق. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا تجريان استعدادات علنية للحرب وتتخيران التوقيت المناسب للغزو.

وقبيل التدخل الأمريكي في العراق وفي محاولة أخيرة لإنقاذ الموقف أوفد الرئيس **بوتين** **يفجيني بريماكوف** للقاء الرئيس **صدام حسين** شخصيًّا. يقول **بريماكوف**: ''قبل ثلاثة أسابيع من اندلاع العمليات العسكرية الأمريكية في العراق في 2003م سافرت إلى بغداد بعد اتصال هاتفي في الليل بين الرئيس **بوتين** و**صدام حسين**. وكلفني الرئيس الروسي بالسفر فوراً وأن أنقل رسالة شخصية منه إلى الرئيس **صدام**. كان فحوى الرسالة يدور حول دعوة **صدام حسين** للتخلي عن منصب رئيس العراق والدعوة لإجراء انتخابات ديمقراطية. وخشية أن يؤدي انسحاب **صدام** إلى عدم استقرار داخلي في العراق كلفني **بوتين** أن أخبر **صدام حسين** أنه يمكنه أن يحتفظ بمنصبه كرئيس لحزب البعث. لم يحضر اللقاء أي شخص. وبعده دعا الرئيس **صدام** بعض الوزراء في الحكومة العراقية للمشاركة في الحوار والاستماع إلى فحوى

رسالة **بوتين** والإدلاء بآرائهم. ربت صدام على كتفي بصمت وغادر القاعة. وفي أثناء مغادرته تحدث **طارق عزيز** بصوت مرتفع وكأنه يريده أن يسمع: "بعد عشر سنوات سنرى من على الحق ومن على الباطل. هل هو رئيسنا المفدى أم **بريماكوف**" [13]

كان **صدام** قد فقد تمامًا الإحساس بالواقع، وكان ذلك أمرًا واضحًا للجميع. وفي معرض تقييمه لمصير الدكتاتور **صدام حسين** كتب **بريماكوف**: ''من سمات **صدام حسين** أيضًا أنه لم يكن يسعى إلى الحصول على معلومات موضوعية وصادقة. وكان المحيطون يمدونه بمعلومات مغلوطة خشية غضبه. كانوا يبالغون في ذكر الأحداث والتطورات والتوجهات التي تؤكد صواب رأيه وحكمته وبعد نظره كقائد وزعيم.''[14] كان مصيره محتومًا.

اندلعت الحرب في 19 مارس 2003م وتمكنت الولايات المتحدة الأمريكية من حشد تحالف من (49) دولة من بريطانيا إلى أوكرانيا ومن لاتفيا إلى كوريا الجنوبية. والجدير بالذكر هنا أن الكويت كانت الدولة العربية الوحيدة ضمن هذا التحالف. فأغلب الحلفاء لم يرسلوا فرقًا عسكرية إلى العراق. أما تركيا فقد رفضت عبور القوات الأمريكية أراضيها؛ ولذا فقد جرت العملية العسكرية انطلاقًا من الجنوب وطال أمدها بعض الشيء. بلغ حجم الخسائر الأمريكية 140 قتيلاً فقط.[15]

وخلال ثلاثة أسابيع من بداية الحرب اقتربت قوات التحالف من بغداد وفي التاسع من أبريل قامت قوات الحرس الجمهوري العراقي وهي القوات الأكثر جاهزية قتالية في الجيش العراقي بتسليم المدينة.

ولم تتكبد القوات الأمريكية وحلفاؤها خسائر كبيرة في سبيل السيطرة على كبريات المدن العراقية. وانهار الجيش العراقي ولم يستطع مواجهة القوات الأمريكية والبريطانية المجهزة بأحدث الأسلحة في العالم. وسيطر طيران التحالف على أجواء القتال. وكان القادة في الجيش العراقي يلوذون بالفرار أو يستسلمون للعدو. ويعتقد أنه تم شراء الكثير من الجنرالات. وهناك عدد كبير من القوات غادر مواقعه عندما شعر باقتراب قوات التحالف من بغداد.

وقد تولى قائد القوات المحتلة الجنرال **ت. فرانكس** إدارة شؤون العراق حتى مايو 2003م. لم يكن في البلاد جيش أو شرطة أو جهاز دولة. عمَّت الفوضى كل مكان وتم إلحاق الضرر أو تدمير أو سرقة الآلاف من آثار العراق والقطع الفنية التي تنتمي لحضارات العراق القديمة في **شومر** و**بابليون**.

وفي الأول مـــن مايـــو 2003 م صرح الرئيـــس الأمريكي **جورج بـــوش** منع على متن حاملة الطائرات ''**ابراهام لينكولن**'' في الخليج العربي بانتصار أمريكا في الحرب: ''**تم تنفيذ المهمة**''. وكان العالم على موعد مع ســـنوات من اليأس والدماء حتى تحول النصر إلى فشل وأصبح الاحتلال العسكري للعراق حقيقة وواقع.

كانت الرؤية الروســـية للحرب التي شـــنتها أمريكا وبريطانيا على العراق جد سلبية إلا أن روســـيا كانت عاجزة عن فعل شـــيء. وعندما حاول رئيس الإدارة المركزية الروحية للمسلمين الـــروس **طلعت تاج الدين** المســـاعدة ودعا للجهاد ضد الولايـــات المتحدة الأمريكية لم يلقَ دعمًا من **الكرملين**. أما **رافيل عين الدين** رئيس مجلس الإفتاء الروسي ورئيس الإدارة الروحية لمسلمي الجزء الأوروبي من روسيا فقد أدان هذه الدعوة. [16]

ولكن، كيف الســـبيل؟ هناك مثل إنجليزي يقول: ''إذا لم تســـتطع أن تهزم عدوك انضم إليه.'' كان هذا التصرف غريبًا على السياســـة الخارجية الروســـية وتقاليد العمل الدبلوماسي الروســـي وثقافة وطريقة التفكير الروســـية. إلا أن روسيا كانت مضطرة للخضوع للواقع الذي فرض عليها.

وفي 2 أبريل 2003م صرَّح **بوتين** بأن روســـيا ''لا تريد للولايات المتحدة أن تفشـــل في العراق.''[17].

وفي 11 ابريل 2003م التقى **فلاديمير بوتين** في مدينة **ســـان بطرســـبورج** مع الرئيس الفرنسي **جاك شيراك** والمستشار الألماني **ج. شرودر**.

وأدان الزعماء عملية إعادة البناء في العراق ما بعد الحرب ودعوا الأمم المتحدة إلى تحمل مســـؤوليتها في لعب الدور الأساســـي في هـــذا الموضوع. وقد أثارت هـــذه المطالب حفيظة واشـــنطن. إلا أنه وبعد تحقيق النصر في الحرب اتخذ الرئيس **بوش** قرارًا بمعاقبة فرنســـا وتجاهل ألمانيا ومســـامحة روســـيا. [18] ومهما كان بقي كل ذلك محض كلمات وتصريحات. كان من الواضح أن الهيمنة السياســـية والاقتصادية التامة في العراق ســـتبقى في يد الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها.

كان واضحًـــا للعيـــان الضربة الـــتي تلقتها روســـيا ومصالحها من الناحيـــة الاقتصادية والجيوسياسية. إلا أنه كان من الضروري الحفاظ على ماء الوجه؛ ولذا فقد أكدت **موسكو** أن خلافاتها مع أمريكا بشأن العراق لا يجب أن تعيق جهود التحالف الدولي ضد الإرهاب. [19]

وزار بوش روسيا خلال الاحتفالية بمرور 300 عام على تأسيس مدينة سان **بطرسبورج** وفي أثناء اجتماع قمة ''الثمانية'' بمدينة **ايفيان** في يونيو 2003م أكد على دفء العلاقات بينه وبين الرئيس **بوتين**.

كان التحالف الدولي ضد الإرهاب يقتضي التعاون بين روسيا والغرب ضد المتطرفين الإسلاميين الذي شددوا من هجماتهم بعد دخول القوات الأمريكية أفغانستان وبعد الحرب الخليجية الثانية. كانت هناك مخاوف مشتركة من تهديدات الجماعات الإسلامية دفع الجانبين إلى التقارب غير أنه لم يتطور إلى مستوى التعاون الواسع والقوي.

وفي موسكو كان المسؤولون يعترفون بمنتهى البرجماتية بهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية في العراق المحتل وبالخسائر الاقتصادية والسياسية التي تكبدتها روسيا بعد الانتصار الأمريكي؛ ولذا فقد تم وضع السياسة الروسية الخارجية وفقا لهذه المعطيات.

قامت روسيا بالتصويت في مجلس الأمن لصالح الاعتراف بالإدارة الأمريكية المؤقتة في العراق ثم الاعتراف بالحكومة العراقية المؤقتة. كما اعترفت روسيا بالدستور المؤقت في العراق رغم إبدائها بعض التحفظات. وقام رئيس وزراء الحكومة المؤقتة في العراق **إياد علاوي** بزيارة إلى **موسكو** في ديسمبر 2004م. ودار الحديث عن إلغاء الديون العراقية لروسيا مقابل احترام الاتفاقيات الموقعة بين الشركات الروسية والنظام السابق حول استكشاف النفط العراقي.

كان الموقف الروسي المعلن يدعو إلى الاعتراف بضرورة مشاركة الأمم المتحدة في شؤون العراق والحفاظ على وحدته الإقليمية ونشر الديمقراطية في الحياة الاجتماعية والأخذ بمصالح الأقليات القومية ووقف الاحتلال الأمريكي. وكانت واشنطن في حاجة إلى تقنين وشرعنة وجودها في العراق بمساعدة الأمم المتحدة وبدعم ولو بالتصريحات من قبل الروس.

وبعد دخول الاحتلال الأمريكي للعراق اندلعت حرب عصابات. وباستثناء المناطق الكردية حيث كانت الإدارة هناك داعمة للوجود الأمريكي وتأمل في التعاون مع الأمريكان اندلع القتال في ربيع 2004م في المدن الشيعية في وسط وجنوب العراق وكذا في المثلث السني وخاصة في مدينة **الفالوجة** حيث كانت تنشط جماعات من المتطرفين السنة.

واشتعلت الحرب تدريجيًّا ولكن بدا أن مقاومة الاحتلال قد خفتت في شهري أغسطس وسبتمبر 2004م. حيث تم توقيع اتفاقيات مع الشيعة. وفي 30 يناير 2005 تم

obeikandl.com

إجـــراء الانتخابات البرلمانيـــة في العراق حيث فاز التحالف الشـــيعي وحصل على 48 % من الأصوات. واستأنفت روسيا علاقاتها الدبلوماسية مع الحكومة الجديدة.

أصبح المســـؤولون الشيعة في السلطة يمارســـون العنصرية مع السنة، وهو ما زاد من حالة الشقاق في المجتمع.

وفي ربيع إلى خريف 2005م شـــهد العراق عددًا من العمليات الإرهابية ســـواء الموجهة ضد قوات الاحتلال أو إلى القيادات المدنية العراقية العسكرية والدينية.

وفي عام 2006م كانت الحرب الأهلية بين الســـنة والشيعة في ذروتها. كان المقاتلون من الجانبين يقومون بتفجير المســـاجد واختطاف السكان المسالمين وقتلهم وتعذيب المختطفين. لم تكن محافظة **الأنبار** وأجزاء كبيرة من العاصمة بغداد تخضع لســـيطرة القوات الأمريكية أو الحكومة، حيث ازداد نفوذ تنظيم القاعدة. وأصبح من الواضح أن الأمر قد خرج عن السيطرة وكان من الضروري اتخاذ قرارات حاسمة.

بدأت هالة الفوز التي رسمت حول شـــخص الرئيس **بوش** تتلاشى وفقد الحزب الجمهوري شعبيته، وفي 7 نوفمبر فقد الأغلبية في **الكونجرس** و**مجلس الشيوخ**. وكان لزامًا على **بوش** في مثل هذه الظروف إقالة وزير الدفاع **دونالد رامسلفيلد** وعدد من المحافظين.

وتم تشـــكيل لجنـــة ثنائية "**بيكـــر – هاملتون**" في عام 2006م. وقـــد أكدت الوضع المتأزم في العراق وأوصت بالإعلان فورًا عن مواعيد لتقليص عدد القوات الأمريكية في العراق وتوقيت انسحابها. كما أوصت اللجنة بإجراء مفاوضات مع إيران وسوريا نظرًا لتأثيرهما على الوضع في العراق. وقد تجاهل **بوش** توصيات اللجنة. [20]

وكان آخر حدث مدوٍّ في عام 2006م في العراق هو إعدام **صدام حســـين** والذي كان قد اعتقل قبل عدة أشهر. تم توجيه العديد من الاتهامات إليه إلا أنه تم الإسراع من إجراءات المحاكمة. وكان من الواضح أن المســـؤولين الأمريكيين لا يريدون أن يكون لدى **صدام** فرصة للحديث. تم شنقه في 30 ديسمبر 2006م.

ســـعى الأمريكان إلى الســـيطرة على الموقف وأرســـلوا بقوات إضافية قوامهـــا 21 ألفًا استطاعت بالفعل السيطرة بعض الشيء على المثلث الشيعي وجزء كبير من العاصمة بغداد. تم شـــراء ولاءات العديد من شـــيوخ القبائل الكبرى الرافضة لوجود تنظيم القاعدة. وبدا أن

obeikandi.com

الوضع قد استتب والأمور قد هدأت. إلا أن الشقاق في المجتمع أخذ يزداد ويتسع. وحل محل القاعدة متطرفون أشـد عنفًا وقام هؤلاء بتأسيس ما سمي ب ''**الدولة الإسلامية في العراق والشام**'' أو **داعش**.

وتم في 2010 إجـراء الانتخابات البرلمانية العراقية وفاز فيها تكتل ''**العراقية**'' برئاسـة رئيـس الوزارء المؤقت سـابقًا **إياد علاوي** بأغلبية الأصوات. إلا أن **نور المالكي** اسـتطاع الحفاظ على منصبه كرئيس للحكومة. واعتمد **المالكي** على تكتل من الأحزاب الشـيعية. ومع الوقت ظهرت شـقاقات بين التكتلات الشـيعية فيما بينها، وكذا بين الأحزاب السنية. كان نفوذ إيران يتنامى في العراق.

وقد سمح الهدوء المؤقت الذي سيطر على المثلث السني لوزير الدفاع الأمريكي **ليون بانيت** أن يقوم في 15 ديسـمبر 2011 بإنزال علم الفرق العسـكرية الأمريكية في بغداد وإعلان انتهاء العملية العسـكرية في هـذا البلد. وصرح الرئيس **أوباما** أثنـاء كلمة ألقاها في قاعدة **كارولينا** الشمالية العسكرية أن أمريكا ستترك العراق بلدًا مستقرًّا ذا سيادة.

وخلال سـنوات الحـرب فقدت الولايات المتحدة الأمريكيـة 4423 قتيلاً و31942 جريحًـا بالإضافـة إلى 9 آلاف فروا من الخدمة. كما يمكن إضافـة حوالي 850 من قوات الحراسـة الشـخصية لقوا مصرعهم و933 من المتعاقدين في الجيش الأمريكي لم يشـر إلى جنسيتهم. [21] وفقدت بريطانيا 179 قتيلاً وإيطاليا 33 وبولندا 23 وأوكرانيا 18 وجورجيا 5 ولاتفيا 3 واستونيا 2. [22]

كما قتل العشرات من العسكريين الأمريكيين بعد انتهاء عملية ''**تحرير العراق**''.

وخلال تسـعة أعوام تقريبًا من الاحتلال العراقي تحولت الصدامات الشـيعية السنية في العـراق إلى بحـور من الدماء حيث تحول الأمر إلى حرب أهليـة كاملة. وأودت هذه الحرب بحيـاة 250 ألـف– مليون مواطن عراقي. كما تقلص عدد المسـيحيين في العراق إلى الربع (من مليون إلى 250 ألف). وغادر خمس ملايين عراقي بلادهم. كان وسط بغداد معظمة للشيعة وتم طرد السنة من ثلاث محافظات في وسط وغرب العراق. تم تقسيم العراق فعليًّا إلى ثلاثة أجزاء: **القسم الكردي** و**القسم الشيعي** و**القسم السني**. أقام الأكراد إقليم كردستان المستقل في شمال العراق.

وقد أدت مساعي التخلص من نفوذ حزب البعث في العراق إلى انهيار الجهاز الحكومي بالكامل وبنية السلطة وتدمير الجيش والشرطة. لم يستطع المهاجرون العراقيون العائدون والذين تقلدوا مناصب رفيعة في السلطة أن يسيطروا على الوضع، حيث افتقدوا إلى قواعد شعبية سياسية واجتماعية، وكان لزامًا عليهم الاعتماد على الأحزاب الدينية الشيعية.

وبقي الضباط البعثيون السابقون دون عمل أو مورد مالي يعينهم على الحياة فقام هؤلاء بتشكيل جماعات إرهابية مسلحة ومنها **داعش**.

وسعت روسيا إلى دعم العلاقات الاقتصادية مع الإدارة العراقية الجديدة إيمانًا منها بأن الاتصالات القديمة مع العراق ومصالح العراقيين ستوفر أرضية لتحقيق درجة ما من التعاون الروسي العراقي في المجالين الاقتصادي والعسكري. وبالطبع كان واضحًا أن **بغداد** يجب أن تضع في حساباتها دومًا وجهة النظر الأمريكية، ولكن كان هناك بصيص أمل تنفذ منه روسيا إلى العراق.

امتدت المفاوضات حول تسوية الديون العراقية عدة سنوات. وفي النهاية وبحلول فبراير 2008م وافقت روسيا الاتحادية على إلغاء ديون تبلغ 11. 1 مليار دولار بالإضافة الى 900 مليون دولار تم إعادة تسوية طريقه سدادها عن العراق على مدى 17 عامًا. وقد وفَّر ذلك إمكانية لعودة الشركات الروسية إلى العراق.

وفي 12 ديسمبر 2009م قام تحالف من شركتي **لوك أويل** الروسية و**ستيت أويل** النرويجة وعدد من الشركات العراقية بالفوز بمناقصة التنقيب عن النفط في ''**القرنة الغربية** 2''. [23] ويعد هذا البئر من بين أضخم الآبار في العالم والذي لم يتم استغلاله بعد.

وبعد فترة قامت شركة **ستيت أويل** النرويجية ببيع حصتها إلى شركة **لوكا ويل** الروسية التي أصبحت تملك 75 % من الأصول وبقي 25 % لشركة ''**نفط الشمال النفطية**''. وقد خشي المنافسون الأمريكيون وغيرهم المخاطرة أما الشركة الروسية **لوك أويل** فكانت تعرف ما هي مقدمة عليه.

وقد تم اكتشاف بئر ''**القرنة الغربية** 2'' من قبل الجيولوجيين السوفييت في عام 1973م. ويقع على بعد 65 كيلومتر شمال غرب العاصمة العراقية بغداد. وخلال السبعينيات والثمانينيات جرت عمليات استكشاف لنفط هناك. وتم تحديد الاحتياطات المؤكد بحوالي

13–14 مليار برميل نفط. [24] وتمتد مدة العقد إلى 20 عامًا وتم التوقيع عليه وتعد شروطه أفضل من الشروط التي كانت أيام حكم **صدام حسين**.

واستثمرت الشركة الروسية حوالي 5 مليارات دولار في عمليات التنقيب والتطوير وتضاعف الإنتـــاج من البئر وتم تعويض النفقات في عام 2015 بما مقداره 2. 3 مليار دولار. وصرح رئيس الشـــركة **فاجيتال كبيروف** أن الستة أشهر الأولى من عام 2016م ستشهد استعادة **لوك أويل** لكافة المبالغ التي أنفقتها في الاســـتثمارات. إلا أن هبوط أســـعار النفط أطال من تلك الفترة غير أن النجاح التجاري كان واضحًا ومؤكدًا. وكانت الدراسات تؤكد إنتاجًا سنويًّا مؤكدًا يبلغ 95 مليون طن، وأن يســـتمر هذا المعدل لثلاثة عشر عامًا. ويمكن تصحيح هذه الأرقام مستقبلاً.

كما ســـعت شـــركات ''**باش نفط**'' و'' **روس نفط**'' و'' **غاز بـــروم نفط**'' للحصول على حصتها في النفط العراقي. وقامت شـــركتا ''**لوك أويل أوفر سيز**'' الروسية و''**انبيكس كوربريشـــن**'' اليابانية بتقديم عرض مشترك والفوز بحق استكشاف المنطقة 10 الغنية بالنفط والقريبة من ''**القرنة الغربية** 2''

وظهرت بعض المشـــكلات المرتبطة بإنتاج النفط في منطقة كردســـتان العراق. وصرحت بغداد أكثر من مرة أنها ســـتقوم بفرض عقوبات على الشركات التي تبرم عقودًا للاستكشاف والتنقيب والإنتاج في هذه المناطق دون الرجوع للحكومة المركزية. ولم تستثن من ذلك الشركات الروسية. إلا أنه تم تسوية الأمر مع الحكومة.

وحافظت روسيا على مكانة وموقع اقتصادي مهم في العراق. كانت بغداد معنية بالحصول على واردات السلاح الروسي إلا أن روسيا كانت تفتقد لأي نفوذ سياسي أو قواعد سياسية واجتماعية في العراق.

وتطورت الأحداث في العراق وفق ســـيناريوهات غير متوقعة. كان على الولايات المتحدة أن تجني ثمار أخطائها العديدة، وكانت مضطرة في الوقت نفســـه إحياء نفوذها العسكري في هذا البلد فضلاً عن التدخل العسكري الدائم في صورة الغارات الجوية المتواصلة. وسنتحدث عن ذلك تفصيلاً لاحقًا.

obeikandl.com

سنوات وثمار البرجماتية[1]

العلاقات الروسية التركية

شهد العقد الماضي تطوراً ملحوظًا في العلاقات الروسية التركية في مختلف المجالات: التجاري والاقتصادي والسياسي والفني والعسكري والثقافي. بقيت التناقضات غير أنه تم تجاهلها. وتقديم تطوير العلاقات المتبادلة بين البلدين في مختلف المجالات السياسية والعسكرية الحيوية. تنامي التعاون الاقتصادي إلى مستويات غير مسبوقة. كانت تركيا تتطور بديناميكية سريعة، وكان الاقتصاد الروسي يتعافى من الأزمة بفضل ارتفاع أسعار النفط واستقرار الأوضاع بشكل عام. كان البلدان في حاجة إلى بعضهما البعض وساعدت العلاقات الودية بينهما على تحقيق أنقرة خطوات سياسية قوية للأمام.

ب. ف. ستيجني[25]: في عام 2003م لم يسمح **أردوغان** للأمريكيين بالمرور عبر أراضي تركيا في طريقهم إلى العراق. كانت القيادة الروسية على ثقة أن الأتراك سيسمحون لهم باستخدام أراضي تركيا أما أنا فقد كتبت من البداية أن الأتراك لن يفعلوا ذلك. لامني الجميع وسخروا من رأيي هذا. ولكن هذا ما حدث وكانت لدي في تلك الفترة علاقات وثيقة مع أحد الأصدقاء المقربين من **أردوغان**. لم يقل لي بالطبع أي شيء بشكل مباشر لكن سياق الحديث بيننا كان يفضي إلى هذا الانطباع، وكان من الممكن أن أخرج من حواراتي معه بنتائج محددة. كانت هناك ثقة فيما بيننا.

المؤلَّف: بعدها تطورت العلاقات أكثر فأكثر.

ب. ف. ستيجني: في عام 2004م تحديدًا اتصل بي رئيس قسم الأمن (لديهم هذا المسمي الوظيفي في الخارجية التركية) قال لي: ''أقترح عليك أن نوقع اتفاقية بعدم السماح للناتو بالدخول إلى البحر الأسود''. قلت له وكنا نمزح عادة سويًّا: ''ماذا تقول؟ أخرج أولاً من الناتو. لا أصدق ما تقول''. قال: ''نحن نقوم بدعم عمليات مكافحة الإرهاب ولكننا نستطيع أن نقوم بذلك معكم ومع الدول التي لها حدود على البحر الأسود. لماذا نسمح لسفن دول ليس لها حدود في الدخول إلى هناك؟ ''. قلت له: '' أستطيع أن أقول لك مسبقا أن القيادة الروسية ستتقبل هذا المقترح بتفهم تام، ولكن يجب عليك أن تبعث لي كتابة بهذا

١ قام بجمع المادة العلمية لهذا القسم أ. س. خودونوف.

obeikandl.com

المقترح وإلا فلن يصدقني أحد''. فكتب وقمت بإرسال الخطاب ولم يصلني أي رد من أي نوع. وبعد فترة أرسلوا لي: قم بإعداد الاتفاقية. أخيرا وثقنا في الأتراك. هكذا كانت علاقاتنا تتطور معهم. وخلال شهرين أو ثلاثة وافقنا على التعاون في إطار هذه الاتفاقية الجديدة. وفي عام 2006م قمنا بالتوقيع عليها شكليا وكانت اتفاقية مستقلة عن العمليات التي يقوم بها حلف الناتو في البحر الأسود. قمنا بموجبها بمراقبة الوضع وتبادل المعلومات حول النشاطات الإرهابية والإجرامية وأسلحة الدمار الشامل في حوض البحر الأسود.

المؤلِّف: هل تم ذكر معاهدة مونتريو[1] في الاتفاقية؟

ب. ف. ستيجني: أكدنا أننا ندعم معاهدة مونتريو. كان هناك 8 دول بما فيها اليابان. وأكثر من ذلك لم تسمح تركيا أثناء الأزمة الجورجية بمرور السفن الحربية الأمريكية الضخمة وفشلت كل محاولات الأمريكان للضغط عليهم للقبول. سمح الأتراك فقط لفترة محددة بمرور السفن العسكرية التي يتفق حجمها وبنود معاهدة مونتريو.

المؤلِّف: كانت هناك مقدمات لذلك.

ب. ف. ستيجني: من بين مقدمات الدفء الملحوظ في العلاقات الدبلوماسية بين روسيا وتركيا في العقد الماضي هو إلغاء قضية البحر الأسود وقضية المضايق من جدول الأعمال حيث كانا هذين الموضوعين يثيران غضب البلدين على مدى قرون عدة. كانت مساحة شواطئنا على البحر الأسود في حدها الأدنى بل قل رمزية مقارنة بغيرنا من الدول. وكانت رومانيا وبلغاريا قد انضمتا إلى حلف الناتو. تغير ميزان القوة بسرعة لا سيما أن تركيا لم تنسحب يوما ما من الناتو. وفي ديسمبر 2004م قام الرئيس **بوتين** بزيارة إلى تركيا وكانت تلك نقطة تحول انطلقت بعدها علاقات ثقة متبادلة بينه وبين **أردوغان**.

وأشير هنا إلى أن هذا الحوار قد أجري في مارس 2015 ولم أكن أنا أو محدثي نتوقع هذا التحول الدرامي في الحدث الذي وقع في نهاية 2015. ولكن سنعود لذلك لاحقا بالتفصيل.

١ المعاهدة التي أعادت سيادة تركيا على مضيق البوسفور والدردنيل في البحرين المتوسط والأسود. تم التوقيع عليها أثناء مؤتمر مضايق البحر الأسود المنعقد في مونتريو في ٢١-٢٢ يوليو ١٩٣٦م. تم تحديد عدد وحجم وفترة تواجد السفن العسكرية من قبل البلدين التى ليس لها حدود على البحر الأسود.

obeikandi.com

وفي ديسمبر 2004م وصل الرئيس **بوتين** إلى تركيا في زيارة رسمية ووقع أثناء الزيارة عددًا من الاتفاقيات الثنائية وإعلانًا سياسيًّا مشتركًا لتوثيق وتعميق علاقات الصداقة والشراكة في مختلف المجالات بين البلدين. وجاء في الإعلان: ''أن روسيا الاتحادية والجمهورية التركية هما بلدان صديقان جاران يرحبان بتطوير علاقاتهما مستقبلاً وتعميق أسس العلاقات الثنائية بين البلدين في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتشجع أجواء الثقة المتبادل والتضامن فيما بينهما. . . وتؤكد روسيا الاتحادية وتركيا التطابق والتقارب فيما بينهما حيال المشكلات الدولية والإقليمية وأسلوب التعامل معها'' [26].

وفي يناير 2005م قام رئيس الوزراء التركي **رجب طيب أردوغان** بزيارة عمل إلى **موسكو**. كما قام بزيارة في أغسطس 2008م والتقى مع الرئيس **ميدفيديف** ورئيس الوزراء **فلاديمير بوتين**. وقام وزير الخارجية الروسي **سيرجي لافروف** بزيارة إلى تركيا في يوليو 2008م ثم في سبتمبر من العام نفسه. كما قام نظيره التركي بزيارة **موسكو** في يوليو 2009م[27]

كما تطورت العلاقات بين برلماني البلدين. وفي يومي 4-3 نوفمبر 2008م وصل إلى تركيا وفد برلماني روسي أجرى هناك مفاوضات بناءة. وفي نفس العام قام وفد مجموعة الصداقة في البرلمان التركي ولجنة العلاقات الدولية بزيارة موسكو. وأشار البرلمانيون بأنهم يدينون العدوان الجورجي في أغسطس 2008م. [28]

وفي 12 مايو 2010م زار الرئيس **ميدفيديف** أنقرة حيث شهد تأسيس مجلس للتعاون على أعلي مستوى ما سمح بقيام شراكة استراتيجية بين روسيا الاتحادية وتركيا وتم عقد الاجتماع الأول للجنة. ويتألف المجلس من لجنة للاقتصاد وأخرى للتخطيط الاستراتيجي برئاسة وزراء الخارجية ومنتدى اجتماعي يهدف إلى تحقيق تعاون ديني ثقافي.[29]

وحدث تنشيط ملحوظ في العلاقات بين البلدين في المجالين العسكري والأمني. ففي يونيو 2007م قام قائد القوات الجوية التركي **ف. جوميرت** بزيارة إلى روسيا. كما قام قائد القوات البحرية الروسية بزيارة إلى تركيا في يونيو 2008م. وقام وزير الدفاع الروسي **أ. سرديوكوف** بزيارة أخرى في نوفمبر 2008م. وقام النائب الأول لرئيس جهاز الأمن الفيدرالي الروسي **ف. برونيتشيف** بزيارة إلى تركيا في يناير 2009م.[30]

وقامت القوات البحرية الروسية والتركية بإرساء التعاون فيما بينهما في حوض البحر الأسود بهدف تحقيق الأمن في المنطقة. ونشير هنا إلى أن العقد الماضي لو قمنا باستثناء

القدرات الصاروخية النووية الروسية كان يصب في صالح تركيا.

وفي يناير 2009م جرت مناورات عسكرية بحرية تركية روسية. وقامت شركات السلاح الروسية بتصدير السلاح إلى تركيا التي كانت حريصة على شراء أحدث التكنولوجيات العسكرية الروسية والتي أحجم حلفاؤها في الناتو عن تصديرها لتركيا. واكتسب التعاون السياسي والعسكري بين البلدين ملامح واضحةً، وبدا أنه أصبح عاملاً قويًّا على تحقيق الاستقرار في المنطقة. [31]

وقد ساعد على تحقيق الدفء في العلاقات مع روسيا موقف الأخيرة الحذر من حزب العمال الكردستاني والذي تعتبره أنقرة ''**منظمة إرهابية**''. وظلت منطقة القوقاز قضية شائكة في العلاقات الثنائية بين البلدين. فقد دعمت تركيا أذربيجان، أما روسيا فحاولت لعب دور الشريك المتوازن في علاقاتها بأرمينا وأذربيجان على السواء. وكانت تدعم تحقيق التسوية السلمية للأزمة في **كاراباخ**. في حين دعمت تركيا فكرة انضمام جورجيا للناتو وهو ما عارضته روسيا. وعلى الرغم من ذلك أعاقت تركيا توصيل المساعدات الأمريكية إلى جورجيا أثناء الأزمة الجورجية في عام 2008م، حيث لم تسمح بمرور السفن الأمريكية عبر المضايق.

وقد صرح **رجب طيب أردوغان** بأن بلاده تضامنت مع روسيا. كما حاولت **أنقرة** تحمل دور وسيط السلام في القوقاز واقترحت في عام 2008م تأسيس '' أرضية لدعم الاستقرار والتعاون في القوقاز'' بمشاركة كافة دول المنطقة. ونجحت روسيا وتركيا في الاتفاق على موقف موحد يرفض تدخل دول من خارج المنطقة في قضايا القوقاز. وتبنى البلدان موقفًا متقاربًا فيما يتعلق بالأزمة النووية الإيرانية حيث دعما التسوية السلمية السياسية للأزمة. [32]

وفي النصف الثاني من العقد الماضي احتلت روسيا المرتبة الثانية بعد ألمانيا في حجم التبادل التجاري مع تركيا. وضمت قائمة الواردات التركية من روسيا النفط والغاز والصناعات المعدنية. وضمت قائمة الواردات الروسية من تركيا السيارات والمعدات والنسيج والمنتجات الغذائية والبتر وكيماويات. وفي عام 2008م بلغ حجم التبادل التجاري 37. 9 مليار دولار. ثم انخفض بشكل حاد إلى 22. 6 مليار في عام 2009م ثم استعاد عافيته مرة أخرى وبلغ 33. 3 مليار في عام 2012م. [33]

وتحتل الطاقة مكانة مهمة في التعاون الاقتصادي الروسي التركي حيث تم تدشين خط الغاز ''**السيل الأزرق**'' في عام 2005م. كانت تركيا تحصل على جزء من الغاز الروسي

obeikandi.com

عبر البلقان. والتزمت شـركة الغاز الروسية ''**غاز بروم**'' ببنود الاتفاق؛ ولذا فقد كانت محل ثقة كبيرة من الدولة التركية. [34] كان الميزان التجاري غير متوازن وفي صالح روسيا بشدة.

كمـا تعد الاتفاقية التي وقعت بين الحكومة التركية وشـركة ''**اتـوم انبيرجو برويكت**'' لبناء محطة كهرباء بالطاقة الذرية بقيمة 20 مليار دولار من المشـروعات الاسـتراتيجية. وفي مايـو 2010م تم التوقيع على خمس اتفاقيات حكومية في مجال الطاقة النووية ومنها اتفاقية التعاون فقي مجال البناء واسـتغلال المحطات الذرية. واتفق الجانبان على التعاون في مجال بناء المحطات الكهرباء النووية وتصميم وتشـييد البنى التحتية الضرورية وتشـغيل المحطات والدعم العلمي والفني لضمان تأمين المحطات وغيرها من الأمور الفنية وتبادل الخبرات والمعلومات في مجال تشغيل محطات الكهرباء الذرية. [35] وسوف تضم المحطة أربع وحدات بطاقة إنتاجية تبلغ 1200 ميجاوات لكل منها.

وقد وصف هذا المشروع أنه الأول في العالم الذي ينفذ وفق نظام poo (البناء –التملك – التشغيل). وفي عام 2011م تم البدء في إجراء عمليات هندسية ضخمة في موقع المشروع على الرغم من بعض الاحتجاجات المنظمة من قبل السكان.

ولم تكن محطة ''**اكويو**'' الكهربائية النووية الأخيرة التي سـعت تركيا بناءها حيث أجرت الحكومة التركية مفاوضات مباحثات مع شركات فرنسية وصينية وأمريكية لبناء محطات كهرباء نووية على شاطئ البحر الأسود وشمال غرب البلاد.

وفي عـام 2005م فازت شـركة ''**ألفا– جـروب**'' بحصة قوامها 49% من أسـهم شـركة ''**شـوكوروفا تيليكوم هولدينج**'' التركية والتي تمتلك أكبر شـركة اتصالات في تركيا ''**توركيسيل**''. وفي عام 2009م قام فرع شركة ''**لوك أويل**'' الروسية في تركيا بشراء شبكة محطات تموين سـيارات ملك شركة ''**اكبيت**'' التركية والتي تمتلك نسبة 5% من سوق طاقة التجزئة في مجال النفط.

كما نما قطاع السياحة الروسي إلى تركيا. ففي عام 2010م زار تركيا أكثر من 3 ملايين سـائح روسـي أنفقوا حوالي 3 مليارا دولار. وفي مايو 2010م وقَّـع الطرفان اتفاقية إلغاء التأشيرات المتبادلة بهدف تشجيع السياحة بين البلدين. [36]

obeikandl.com

كما تطورت بشكل ملحوظ العلاقات الثقافية الروسية التركية. وفي 2007م تم الاحتفال بعام الثقافة الروسية في تركيا وفي عام 2008م تم الاحتفال بعام الثقافة التركية في روسيا. (في مدن موسكو وكازان وسان بطرسبورج وغيرها من المدن الكبرى). [37] كما نشطت العلاقات بين رجال الدين في البلدين. وفي نوفمبر 2008م شهد المنتدى الدولي " تطوير التعليم الديني في روسيا والخارج" مشاركة رئيس إدارة الشؤون الدينية التركي **أ. بارداكوجل** الذي التقى على هامش المنتدى برئيس مجلس الإفتاء الروسي **رافيل عين الدين**.

كما قام الطرفان بالتوقيع على بروتوكول التعاون في مجال الأديان. ووصف المسؤول التركي روسيا بأنها نموذج يحتذي في التسامح الديني والتعايش وغياب النزاعات بين الطوائف والمعتقدات الدينية. كما التقى مع **الباطريارك كيريل** رئيس الكنيسة الروسية. [38]

وقام الرئيس التركي **عبدالله جول** بزيارة رسمية إلى روسيا في 15-12 فبراير 2009م. وضم الوفد التركي وزير الطاقة والمصادر الطبيعية ووزير التجارة ووفد من رجال الأعمال الأتراك وهو ما أكد على أهمية الزيارة لتحقيق مصالح البلدين الاقتصادية. وناقش الجانبان على هامش الزيارة مشروع خط أنابيب الغاز " **السيل الأزرق2-**". كما قام **عبد الله جول** بزيارة جمهورية **تتارستان** والتقى برئيس الجمهورية **م. شايمييف** وهو ما يعكس السعي التقليدي التركي للتعاون مع الأقاليم التي تقطنها القوميات المتحدثة بالتركية في روسيا الاتحادية.

كما كان من نتائج الزيارة التوقيع على بيان بدعم العلاقات الثنائية وتحقيق الشراكة في مختلف المجالات. وصرح الرئيس الروسي **ميدفيديف** أن هذه الوثيقة تعد بمثابة خطوة جديدة على طريق تطوير العلاقات السياسية والاقتصادية والتجارية والإنسانية"[39].

وقد تطلب تفعيل الشراكة المتبادلة بين البلدين استكمال الأساس القانوني والاتفاقات القائمة.

وفي عام 2001م تم التوقيع على خطة إجراءات لتطوير التعاون بين روسيا وتركيا. [40] وفي عام 2002م تم التوقيع على اتفاقية تعاون في المجال العسكري وتأهيل الكوادر العسكرية. وفي عام 2004م تم التوقيع على اتفاقية تعاون في البحث والإنقاذ البحري في منطقة البحر الأسود. [41]بالإضافة إلى عدد آخر من الاتفاقيات.

والتزم الجانبان بمكافحة الإرهاب ونشر أسلحة الدمار الشامل والجريمة المنظمة.

وفي فبراير 2009م وقَّع الرئيســان الروســي والتركي إعلانًا مشتركًا لتطوير العلاقات بين البلدين وتعميق الصداقة وتحقيق الشراكة في مختلف المجالات. وأشار الإعلان المشترك إلى: "إن البلديــن الجاريــن الصديقين يرحبان بالتطور المهم في علاقاتهما الثنائية والتعاون المشــترك في مختلف المجالات ويؤكدان على ســعيهما لتحقيق الأهداف المشــار إليها في الإعلان المشترك الصادر بتاريخ 6 ديسمبر 2004م".

وفي أغسطس 2009م تم التوقيع على 5 اتفاقيات وبروتوكولات تعاون. حيث تم التوقيع على اتفاقية تعاون في مجال اســتخدام الطاقة النووية سلميا واتفاقية تبادل المعلومات في مجال المحطات النووية ومذكرة التعاون بين جهاز الجمارك الاتحادي الروســي وإدارة الجمارك التركية وبروتوكول التعاون في مجال النفط وبروتوكول التعاون في قطاع الغاز.[42]

ولاحقًا تم التوقيع على اتفاقية تعاون في مجال النقل البحري واتفاقية تنظيم النقل الحديدي والبحري المشترك من موانئ **القوقاز** إلى ميناء **سامسون** التركي واتفاقية تسهيل السفر المتبادل بين المواطنين الروس والأتراك واتفاقية النقل الجوي.[43]

وخلال العقد الماضي والسنوات الأولى من العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين تطورت العلاقات الروســية التركية في مختلف المجالات الحيوية. ولم تحقق روســيا تعاونًا بهذا الحجم أو التنوع مع أي بلد شرق أوسطي.

كما وقع الطرفان عددًا من المعاهدات الأساسية وإعلانين مشتركين يحددان معايير تحديد المصالح المشــتركة. كما توطدت الاتصالات السياســية والعسكرية والثقافية. غير أن عضوية تركيا في حلف الناتو وعلاقاتها الوطيدة مع الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من دول أوروبا وعودة الحديث عن الأحلام العثمانية الجديدة في السياسة التركية الخارجية جعل من العلاقات التركية الروســية رهينة برغبات القوي التي تعارض تطورها وتهدد بتراجعها. وســنعود إلى ذلك تفصيلاً فيما بعد.

"جار طيب. والجار لا يختار" روسيا وإيران

خلال العقد الماضي والحالي شــهد التعاون الروســي الإيراني فترات من الصعود والهبوط، وكان المسؤولون في العاصمتين **موسكو** و**طهران** يطلقون أحيانًا تصريحات الإشادة وفي أحيان

أخرى تصريحات سلبية تجاه الطرف الآخر. غير أن النصر في النهاية كان للعوامل التي تدعم التقارب بين البلدين.

وصرح الرئيس الإيراني **حسن روحاني**: ''آمل أن تتطور العلاقات التاريخية والتعاون بين روسيا وإيران. فروسيا الاتحادية تحتل مكانة خاصة في السياسة الخارجية الإيرانية وستقوم الحكومة الجديدة بمنح الأولوية لإحداث تطور في هذا الاتجاه''[44]. كما صرح الرئيس **بوتين** بلهجة متفائلة:'' إننا نعي المشاكل الكثيرة التي تثار في الفترة الأخيرة حول إيران إلا أننا نتفهم الأمر على نحو مغاير. فإيران بالنسبة إلينا هي بمثابة جار طيب والجار لا يُختار. ولدينا سويًّا إرث ضخم من التعاون وسوف يظل ويتطور في المستقبل''[45].

وقد ساعدت هزيمة **طالبان** في أفغانستان ونظام **صدام حسين** في العراق على تقدم إيران لتصبح القوة الإقليمية الأكبر في المنطقة. وأصبحت الحكومة العراقية الجديدة التي يسيطر عليها الشيعة حليفًا لإيران. كما تمتلك إيران أقوى جيوش المنطقة من حيث العدد 900-900 ألف جندي وهناك تنامي في القوة الصناعية العسكرية.[46]

وبذلت كل من روسيا وإيران مساعي لضمان الاستقرار في منطقة القوقاز وآسيا المركزية، وعدم السماح بهيمنة أي قوة غير إقليمية على مجريات الأحداث في المنطقة وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية. كما عملا على الارتقاء التعاون الاقتصادي والتجاري إلى مستوى جديد ومكافحة تجارة المخدرات. غير أن قضية البرنامج النووي الإيراني مثلت عاملاً معرقلاً لهذا التطور، وكذا الضغوط الاقتصادية والسياسية الأمريكية والغربية والإسرائيلية.

وقد تغير موقف روسيا من قضية إيران النووية أكثر من مرة. فمع الاعتراف بحق إيران بتطوير برنامجها النووي السلمي ورغم معارضة الغرب قامت روسيا بالمشاركة في بناء مفاعل **بوشهر** للطاقة الكهربائية. وفي الوقت نفسه رفضت **موسكو** بشكل قاطع قيام إيران ببناء برنامج نووي عسكري. كانت **موسكو** تنظر إلى القنبلة النووية الإيرانية بكونها خطرًا وتهديدًا غير مقبول على أمن روسيا وعلى الاستقرار والسلم في منطقة الشرق الأوسط والأدنى. وأن ظهور مثل هذا النوع من السلاح في إيران سيؤدي إلى سعي دول أخرى في المنطقة لامتلاكه مثل السعودية وتركيا ومصر.

هل كانت لدى القيادة الإيرانية بالفعل خطط لتصنيع سلاح نووي؟ لا يمكن الإجابة بشكل قاطع على هذا السؤال خلال السنوات القليلة القادمة. ولا أستثني هنا أنه وبعد

استخدام **صدام حسين** الغاز السام في حربة ضد إيران وبعد إعلان كوريا الشمالية عن تجربتها النووية بقيت القيادة الإيرانية دون عقاب؛ ولذا فقد اتخذت قرارها الذي يمكن أن نطلق عليه اسم " **12** إلا **5**".

كان الحديث الدائر عن بناء قدرات علمية وفنية لتصنيع قنبلة ذرية لتضمن إيران أمنها واستقرارها إذا ما فشلت الحلول السياسية والتقليدية. وتم استئناف الأبحاث النووية التي تم تجميدها مباشرة بعد الثورة الإيرانية الإسلامية حيث تم شراء أولى أجهزة الطرد المركزي الخاصة بتخصيب اليورانيوم وتصاميم التصنيع من العالم **عبد القدير خان** "أبو القنبلة الباكستانية".

ووصل عدد أجهزة الطرد المركزي الإيرانية في عام 2015 الى 19 ألف جهاز حيث تم مضاعفة عددها 100 مرة فضلاً عن مضاعفة قدرات الجيل الثاني منها. كما تم إعادة افتتاح مراكز الأبحاث النووية وإنشاء أخرى جديدة وتم تشجيع علماء الذرة الإيرانيين المهاجرين على العودة.

هذا وكانت السياسة الإيرانية حيال ذلك تتسم بالحذر الشديد أخذًا في الاعتقاد أن التصريحات المفبركة بشأن امتلاك العراق أسلحة دمار شامل تمثل حجة ومبررًا لتدخل أمريكي عسكري غربي في هذا البلد وهو ما حدث في عام 2013م. كما كانت القيادة الإيرانية تعي الحرب الإعلامية والمعلوماتية التي تخوضها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها الغربيون وإسرائيل ضد إيران.

وبشكل عام سعت إيران إلى عدم الانسحاب من اتفاقية الحد من الانتشار النووي أو خرق أي بند من بنوده. غير أنه في بعض الحالات لم يتم الإعلان عن الإجراءات التى تقوم بها وهو ما أثار الشكوك والتساؤلات من قبل الوكالة الدولية للطاقة الذرية. وفي السنوات الأولى تحفظت الوكالة عن تسليم الملف الإيراني إلى مجلس الأمن ثم قامت بذلك بفعل الضغوط أمريكية وإسرائيلية.

ويعتبر الأكاديمي **أ. أرباتوف** عالمًا كبيرًا متخصصًا في قضايا الأمن في العالم المعاصر. ويعتقد **أرباتوف** الهدف في البداية من بناء وحدات التخصيب لم يكن سلميًّا خاصة وأن الوقود اللازم لإنتاج الطاقة الكهربائية الإيرانية كان يرد بسهولة ويسر من روسيا. ومن الأمور التى أثارت الشكوك أن عملية بناء محطات التخصيب كان تتم بشكل سري.[47]

وقد قامت روسيا بالتصويت في مجلس الأمن أربع مرات (منذ 2006م) في صالح قرار بفرض عقوبات على إيران. وتصاعدت الأزمة الإيرانية في الفترة 2005-2002م. وفي عام 2005م حقق **محمود أحمدي نجاد** نصرًا كبيرًا في الانتخابات الرئاسية الإيرانية. وأثارت تصريحاته الحادة ضد إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية رد فعل سلبي في الغرب، وهو ما عرقل الجهود والمساعي الروسية الهادفة إلى تسوية سياسية للقضية.

" وكاد التوتر الدولي حول البرنامج النووي الإيراني أن يصل إلى الذروة وتوجيه ضربة عسكرية أمريكية إسرائيلية إلى إيران". [48] وكانت هناك فترات شهدت تصريحات هستيرية تطالب بتوجيه ضربة عسكرية أمريكية إسرائيلية إلى إيران، وكانت الظروف مهيأة لاندلا ع حرب إقليمية.

ب. ف. ستيجني: كانت إسرائيل تستعد لقصف إيران.

المؤلِّف: قام الأمريكيون بمنعهم من ذلك فلم يكن هؤلاء بحاجة إلى حرب جديدة في الشرق الوسط على الرغم من إمدادهم لإسرائيل بقنابل تستطيع إصابة أهداف على أعماق كبيرة تحت الأرض.

ب. ف. ستيجني: نحن أيضًا قمنا بإقناعهم بالعدول عن ذلك.

المؤلِّف: لكن يمكنهم أن يستمعوا إلينا ثم يتجاهلونا. على عكس الموقف مع الأمريكيين.

ب. ف. ستيجني: لا. كانوا ينصتون إلينا أيضًا باهتمام. حتى إننا قمنا بإرسال فريق إلى إسرائيل يضم ثلاثين خبيرًا في البرنامج النووي الإيراني. لم أكن أعتقد قبلها أن لدينا مثل هذا العدد من الخبراء. كان هؤلاء مجموعة من المتخصصين الذين يعرفون أدق التفاصيل وحتى عدد الميللي جرامات التي يمتلكها الإيرانيون في أي مرحلة من مراحل الإنتاج وصلوا. وقد أخبروا الإسرائيليين صراحة: "تصريحاتكم بأنه بمقدور إيران إنتاج قنبلة غدًا مثيرة للسخرية. في الحقيقة ما زال الإيرانيون في بداية الطريق".

المؤلِّف: في كل الأحوال لم يكن الأمريكيون بحاجة لتوجيه هذه الضربة. الأمر هنا لا يتعلق برد الفعل الإيراني. كانت هذه الضربة من شأنها أن تحول البرنامج النووي الإيراني إلى هدف قومي ولن تبخل الحكومة الإيرانية حينها بأي جهد أو مال، وسيحفرون الجبال كي لا تصل إليها أي قنبلة ولو نووية وكان بمقدورهم أن يفعلوا ذلك في خلال 3-5 سنوات.

ب. ف. ستيجني: لم تكن المؤسسة الأمريكية التي يمثلها **أوباما** في حاجة إلى الحرب في تلك الفترة في حين كان آخرون يؤيدون الفكرة. [49]

أما **إيجور إيفانوف** فكان يتبنى موقفًا آخر.

المؤلِّف: كانت إسرائيل مستعدة لتوجيه ضربة عسكرية؟

إيجورإيفانوف: ربما كانت كذلك. لست متأكدًا.

المؤلِّف: هل تنتابكم شكوك معينة؟

إيجور إيفانوف: نعم. أعتقد أن الإسرائيليين قد بالغوا في تصوير هذه القضية مثلما بالغ الإيرانيون في الخطابات المعادية لإسرائيل والتهديد بمحوها من الوجود. كانت تلك مواقف دعائية للاستهلاك المحلي. أما في إسرائيل فيبدو لي أنها كانت حالة هستيرية تسبق عادة الانتخابات الأمريكية. كان من المهم في نظرهم التأكد أن كلا المرشحين للرئاسة الأمريكية سيدعم إسرائيل، وكما ترى فقد خفتت حدة هذه الحملة في إسرائيل الآن" [50]

وقد امتنعت روسيا لفترة طويلة عن الالتزام بالعقوبات الأمريكية والغربية القاسية ضد إيران. كانت السياسة الروسية تثير حفيظة وغضب واشنطن. كما كان الإيرانيون أيضًا غير راضيين عن تلك السياسة.

لم تقم طهران بأي خطوات جادة للوصول إلى حل وسط ومساعدة روسيا التى كانت تصر على ضرورة إرساء حوار بنَّاء بين إيران والمجتمع الدولي. كانت روسيا في الوقت نفسه تثق في تصريحات شركائها الغربيين بعدم كشف إيران عن كافة عناصر برنامجها النووي. كانت طهران تخفي عملية بناء تتم على عمق 80 متراً تحت الأرض لمستودعات تتسع لأكثر من 3000 جهاز طرد مركزي.

أخفى الإيرانيون أكثر من مرة اتفاقات لتوريد اليورانيوم المخصب وهو ما وضع روسيا في موقف حرج. وقد أثر ذلك كله على موقف روسيا دوليًّا حيث أيدت قرار مجلس الأمن رقم 1929 بفرض عقوبات على إيران. وبناء على هذا القرار أمر الرئيس **ديمتري ميدفيديف** بحظر تصدير منظومات صواريخ **إس – 300** إلى إيران رغم سداد الأخيرة لقيمة الصفقة.

إيجور إيفانوف: أثار ذلك حفيظة وغضب الإيرانيين الذين رفعوا قضية ضد روسيا.

obeikandl.com

كانت تلك الخطوة عاملاً جوهريًّا في دفع الأطراف إلى البحث عن حل وسط والذي تمثل في المباحثات بين إيران و"**السداسية**".

المؤلِّف: ما تقييمكم لرفض روسيا توريد المنظومة الدفاعية الحديثة من صواريخ **اس 300** إلى إيران بفعل الضغوط الأمريكية والإسرائيلية؟ كان من نتيجة ذلك أن غضب الإيرانيون وسعوا إلى فرض غرامة ضخمة على روسيا. كان ذلك قرارًا سياسيًّا خطيراً من جانبنا.

إيجور إيفانوف: أعتقد أن السبب ليس أمريكا أو إسرائيل. فقد رأت **موسكو** أن توريد هذه الأسلحة يمكن أن يزعزع من استقرار الموقف في المنطقة. وأرى أننا لو قمنا بتصدير هذه المنظومات الدفاعية لم تكن المفاوضات عن رفع العقوبات لتكلل بالنجاح. لو تمكنت إيران من امتلاك هذه المنظومة من صواريخ **اس 300** لبقيت العقوبات ولفشلت المباحثات حول البرنامج النووي الإيراني"[51].

لم تدعم روسيا العقوبات الدولية خارج إطار الأمم المتحدة ومجلس الأمن والتي كانت واشنطن والاتحاد الأوروبي وعدد من الدول قد قرَّروها من جانب واحد وهي العقوبات التى كان لها أثر مدمر على الاقتصاد الإيراني.

وفي كل الأحوال كانت روسيا تعارض أي إجراءات مماثلة. كان المسؤولون الروس في مرات عديدة يؤكدون حق إيران في امتلاك الطاقة السلمية وهو ما ينسجم مع رؤية المرشد الأكبر للجمهورية الإسلامية الإيرانية **آية الله خامنئي**. فقد أكد هذا الأخير على أن البرنامج الإيراني يجسد أفكار الثورة الإيرانية التى تتمثل في النضال من أجل الاستقلال وتحدى الدول الأجنبية التي تضغط بشكل ظالم على إيران والسعي الدؤوب للاكتفاء الذاتي وتأكيد احترام الدين الاسلامي للعلم[52].

وفي ظل العقوبات الاقتصادية القاسية كان من الضروري لتحقيق هذه الأفكار والأهداف أن تحقق طهران استقرارًا ونموًّا اقتصاديًّا. وجعل الرئيس الإيراني الجديد **حسن روحاني** (2013) من ضمن أولوياته تحقيق تسوية سلمية لقضية البرنامج النووي الإيراني. وانتشرت من إيران تصريحات بالعمل على الوصول إلى حل وسط.

كان الأمر صعبًا على واشنطن وطهران. كان هناك في كلا البلدين معارضون كُثر للاتفاق. وفي واشنطن كانت هناك معارضة مزدوجة من الحزب الجمهوري واللوبي الإسرائيلي.

تم إنفاق عشـــر سنوات قبل توقيع معاهدة 2015م وما رافقها من صعوبات وارتدادات للوراء وتغيير للأولويات. كانت روســيا دومًا تدعم التوصل لحل وسط وحل القضية بالسبل السلمية وساعدت في البحث عن قرار مقبول من الطرفين. تم التوقيع على الاتفاقية النهائية في **فيينا** وتضمنت العديد من الرؤى الروسية. وتبنى الجانبان نظرية ''**التدرج المرحلي والمنفعة المتبادلة**'' لتحقيق النجاح وهي النظرية التى اقترحت من قبل الدبلوماسيين الروس. وتتمحور هــذه النظرية حــول أن يرافق كل خطوة تقوم بها إيران خطــوات في المقابل من جانب دول ''**السداسية**'' والأمم المتحدة في اتجاه التخفيف من العقوبات.

ويمكــن القول إنه كانت هناك جهود للتوفيق بين المواقــف الإيرانية الأمريكية تبذل على التوازي مع المفاوضات الدائرة بين السداســية وطهــران. إلا أن المباحثات الأمريكية الإيرانية المباشرة كانت تجري بشكل سري ولكن العبرة بالنتيجة وليس المنهج.

إيجور إيفانوف: يمكن القــول الآن (2014م) إن الاتصالات الإيرانية الأمريكية حول مكافحة التطرف الإسلامي تزداد من يوم لآخر وأنها تسير على التوازي مع المفاوضات الدائرة بين إيران والسداســية. وإذا ما تطورت العلاقات بين طهران وواشــنطن فسوف يصبح ذلك عاملاً مهمًّا في اســتقرار الوضع في الشــرق الوســط والأدنى. ومن الواضح أنه إذا انتهجت إيران سياســة حكيمة في المنطقة فإن ذلك سيساعد على اســتقرار الوضع في لبنان والعراق وفلسطين. . .

المؤلِّف: ولكنها تريد أن تحصل في المقابل على شيء. . .

إيجور إيفانوف: يمكنها على أقل تقدير أن تحصل في المقابل باعتراف بدورها في القضايا الإقليمية. فإيران دولة إقليمية عظمى، وإذا كانت مصر وتركيا يلعبان دورًا رائدًا على الساحة الإقليمية فإن إيران لا تقل أهمية ووزنًا عنهما.

المؤلِّف: إنها تقاليد تمتد لألف عام. غير أن الإيرانيين طالبوا بكل تشدد بتقليص التواجد الأمريكي في المنطقة.

إيجور إيفانوف: كان ذلك طلبًا مبالغًا فيه من قبلهم

المؤلِّف: نعم. أن تطلب الكثير لتحصل على الأقل بعض الشيء.

obeikandi.com

إيجـــور إيفانوف: في النهاية تلك مشـــكلة هذه البلدان التي تســـمح لغيرها ببناء قواعد عسكرية على أراضيها. [53]

وفي يوم 14 يوليو 2015م تم التوقيع عل اتفاقية حل وســـط أظهرت تقديم كلا الطرفين لتنازلات.

وقد تخلت إيران عن أي مســـعى لتصنيع سلاح نووي. والتزمت بوقف تخصيب اليورانيوم أعلى من 67.3 % خلال الخمســـة عشر عامًا القادمة. كما التزمت بعدم إنتاج البلوتونيوم في موقع **عرقه** بنسبة تخصيب أقل من 3. 67%. وتم تقليص عدد أجهزة الطرد المركزي من 19 ألف إلى 6104 من الجيل الأول. أما باقي الأجهزة فتم إخراجها من الخدمة. كما بقي في مشروع **فاردو** عدد 1044 منها فقط. كما أغلقت الاتفاقية الباب أمام إيران في تصنيع البلوتونيوم الضروري لتصنيع القنبلة الذرية.

وسمحت إيران للمفتشـــين التابعين للأمـــم المتحدة بالدخول إلى المواقـــع النووية الإيرانية بما فيها المواقع العســـكرية. كما ســـيكون بمقدور الوكالة الدولية للطاقة الذرية مراقبة النشاط الإيـــراني النووي طوال 25 عامًا قادمـــة. ويعني ذلك أن (150) من موظفي الوكالة وممثليها ســـيتواجدون في إيران لربع قرن. فضلاً عن ذلك ســـيلتقي ممثلو إيران ودول السداسية لمراقبة تنفيذ بنود الاتفاق وســـتكون اللقاءات على مستوى الوزراء وبمعدل مرتين على الأقل سنويًّا. وفي المقابـــل يتم رفع العقوبات المفروضة على إيران من قبل مجلس الأمن الدولي بالإضافة إلى كامـــل العقوبات الأخرى من قبل الدول بما فيها التجاريـــة والتقنية والمالية وفي مجال الطاقة. وتلغـــي الاتفاقية كافة العقوبات الـــتى فرضت من قبل الاتحاد الأوروبي على العمليات البنكية والتأمين ونظام الدفع البنكي **سويفت**.

ووافقـــت طهران على أن تقوم الأمم المتحدة خلال 65 يومًا بإعادة فرض العقوبات إذا أخلَّت الأولى ببنود الاتفاق.

و في معرض تحليله لبنود الاتفاق بين إيران ودول مجموعة (1+5) بتاريخ 2015 كتب الأكاديمي أ. **أرباتـــوف:** ”يعد الاتفاق حول البرنامج الإيراني والذي تم توقيعه في 14 يوليو 2015 بدون شك خطوة ايجابية كبيرة في سبيل تحقيق التسوية السياسية الدبلوماسية للأزمة النوويـــة الإيرانية وتجنب وقوع حرب جديدة في الخليج بما يتبعها من نتائج كارثية على المنطقة والعالم. كما يعتبر الاتفاق أيضًا إســـهامًا كبيراً في دعم وترســـيخ بنود معاهدة عدم الانتشار

obeikandi.com

النووي ونظام وآليات عدم الانتشـــار النووي بشـــكل عام. كل هذا مشـــروط بالالتزام ببنود الاتفاق الموقع بين إيران والسداســـية التوصل اللي حل بناء لجميع القضايا الخلافية التي يمكن أن تطرأ اثناء التنفيذ"[54].

كما كتب أيضًا: "وعلى الرغم من البنود الخلافية في الاتفاق إلا أنه وبشـــكل عام يلزم الاتفـــاق إيران بتقليص وتحجيم قـــدرات المجمع العلمي النووي وتحد مـــن برامج التطوير فيه ومن مخزون وجودة المواد النووية ويحظر أيضًا النشـــاطات ذات الطابع العســـكري. كما يضم الاتفـــاق بنودًا حول نظام المراقبة من قبـــل الوكالة الدولية للطاقة الذرية على مدى 15-10 عامًا القادمة وحرمان إيران تمامًا من تصنيع سلاح نووي. غير أن الاتفاق لا يشير بوضوح إلى مســـتقبل تأثير الاتفاق على نظام ومنظومات عدم الانتشار النووي. حيث ترفض عدة دول تعميم بنود الاتفاق وأول هذه الدول روسيا الاتحادية. حيث تتبني روسيا موقفًا يصف الاتفاق بكونـــه خاصًّا بالحالة الإيرانيـــة وحدها ولا يمكن تطبيقه على الدول الأخرى. ومن المتوقع أن يصبح ذلك مادة للخلاف مستقبلاً عند مناقشة موضوع عدم الانتشار النووي. "[55]

وقد كان للبرنامج النووي الإيراني تأثير على مجمل العلاقات الروسية الإيرانية والتي أصبحت ذات أهمية استراتيجية لكلا البلدين.

وبعد الزيارة التى قام بها الرئيس **محمد خاتمي** إلى **موســـكو** في عام 2001م التقى مع الرئيـــس **بوتين** في قمة بحر قزوين في تركمنســـتان في أبريل 2002م وكذا في أثناء قمة المؤتمر الإسلامي في ماليزيا في أكتوبر 2003م.

وحافظـــت كل من **موســـكو** و**طهران** على تطابـــق المواقف فيما بينهما تجـــاه القضايا الإقليميـــة. ودعم الجانبان جهـــود التحالف الدولي بقيادة الولايـــات المتحدة الأمريكية ضد طالبان في أفغانســـتان في عام 2001م. وفي أثناء الصراع المسلح بين روسيا وجورجيا في عام 2008م امتنعت إيران عن اتهام أي من الطرفين وهو ما منح روســـيا إمكانية تفسير موقفها للمجتمـــع الدولي. وأجرى **فلاديمير بوتين** مباحثـــات مع الرئيس الإيراني **أحمدي نجاد** في عام 2007م أثناء قمة بحر قزوين في طهران حيث أعلن الطرفان عن ترحيبهما بالتعاون من أجل إرســـاء نظام عالمي أكثر ديمقراطية ويضمن تحقيق الأمن الإقليمي والعالمي يوفر الظروف للتنمية الشاملة"[56] وعكس ذلك كله تطابق المواقف بين البلدين.

وفيما يتعلق بالوضع في بحر قزوين فقد تطابقت مواقف البلدين واختلفا في الوقت نفسه. وبدت أوجه الاختلاف أكثر. وتم تأجيل موضوع صياغة قرار مشترك بين جميع البلدان المطلة على بحر قزوين. وكان الخلاف الرئيس يكمن في عدم اعتراف روسيا بوصف بحر قزوين بأنه ''بحر مفتوح'' وإصرارها على أن هذا البحر يتمتع بخصوصية وحالة فريدة.

وتم عقد القمة الرابعة الخاصة ببحر قزوين في مدينة استراخان الروسية في 29 سبتمبر 2014م بمشاركة رؤساء أذربيجان وإيران وكازاخستان وتركمنستان وروسيا. وتم التوقيع على عدد من الوثائق ومنها اتفاقية التعاون في مجال الطاقة المائية في بحر قزوين وفي مجال الوقاية والقضاء على المشكلات والكوارث الطارئة في البحر والحفاظ على الموارد البيولوجية المائية والاستخدام المعقول لها. كما تم إصدار إعلان مشترك يضم المبادئ التي اتفق عليها الجميع فيما يتعلق بنشاط الدول المطلة على البحر. [57]

وقبيل بدء أعمال القمة تم التوقيع على اتفاق بعدم السماح بتواجد قوات عسكرية لأي دولة غير إقليمية في مياه بحر قزوين. وقد أصرت روسيا وإيران على ذلك رغم التعاون العسكري القائم بين كازاخستان وأذربيجان وتركمنستان والولايات المتحدة الأمريكية والناتو. وتم التأكيد على مبدأ حرية الملاحة واستغلال الموارد البحرية مع احترام السيادة الوطنية لكل دول من دول حوض بحر قزوين وفي حدود 15 ميلاً بحري، وحق كل بلد في التنقيب والاستفادة من الموارد البيولوجية في حدود عمق 10 أميال بحرية.

وقبل ذلك أجرت موسكو وأذربيجان وكازاخستان مفاوضات ثنائية لترسيم الحدود البحرية في بحر قزوين. [58] وكانت إيران منذ البداية تطالب بنصف مساحة الشواطئ المطلة على قزوين إلا أنها خففت مطالبها الى 20% فقط. غير أن الخلاف استمر بين الطرفين. كان من المبكر الحديث عن تقسيم أعماق البحر بين إيران والدول المجاورة وضعا في الحسبان أن الخلاف الدائر كان حول المواقع التي تحتوي على المواقع التي تحتوى على ثروات طاقية محتملة.

كما ظل موضوع نقل الطاقة في أنابيب تحت البحر محل خلافات. حيث دار الحديث عن مشروع لنقل الغاز من تركمنستان عبر بحر قزوين إلى أذربيجان ومنها إلى أوروبا في إطار ما سمي ''ممر الغاز الجنوبي''. وعارضت كل من روسيا وإيران هذا المشروع مبررين الرفض بقلقهما من تأثير ذلك على بيئة بحر قزوين. ولكن كان من الواضح أن كلا البلدين قلقان من ظهور منافس لهما في سوق الغاز الأوروبي وهي تركمنستان.

obeikandi.com

وبشـــكل عام ظلت هناك خلافات كثيرة بين دول بحر قزوين. وكتب الباحث الروســـي **أ. إيفانوف**: ''شـــهدت القمة الرابعة بدول بحر قزوين فشلاً في تحقيق الهدف الأساسي وهو توزيع أنصبة الدول في البحر وأعماقه وموارده الطبيعية''[59].

وفي يوليو 2005م حصلت إيران بدعم روســـي على صفة مراقب في منظمة **شـــنغهاي** للتعاون. وكان هدف إيران الأساسي الحصول لاحقًا على العضوية الكاملة في المنظمة. وعقد المسؤولون الإيرانيون آمالهم على تحقيق ذلك أثناء قمة المنظمة في 2009 والتي عقدت بمدينة **يكاترينبورج** الروسية حينما ترأست روسيا القمة. ورغم مشاركة الرئيس **أحمدي نجاد** في هذه القمة إلا أنه تم تأجيل البت في الموضع.

وفي مباحثـــات **فيينا** ســـعى الأطـــراف إلى التوصل إلى حل وســـط وفي الفترة بين عامي 2012-2014م لوحظ تطور في العلاقات الثنائية بين روسيا وإيران. وجرى تبادل للزيارات بين البلدين على مستوى وزراء الثقافة ونواب وزير الخارجية. ولأول مرة منذ أربع سنوات قام وزير الخارجية الروسي **سيرجي لافروف** بزيارة إلى طهران. وفي فبراير 2012م زار روسيا وزير الداخلية الإيراني.

غـــير أن العلاقـــات الاقتصادية في تلك الفترة لم تكن في أفضـــل حالاتها. حيث لوحظ انخفـــاض في الناتج الإجمـــالي المحلي الإيراني في العام المـــالي 2012-2013م.[60] وارتفعت أسعار السلع الاســـتهلاكية بشكل ملحوظ وانهار الريال الإيراني أمام الدولار وارتفعت نسبة البطالة. ووفقًا للإحصاءات الرسمية بلغت نسبة البطالة في إيران 19 - 20 % ووصلت بين الشـــباب إلى 40 %[61] وزادت نسبة التضخم وأفلس عدد كبير من الشركات أو أصبحت على شفا الإفلاس.

وانخفـــض إنتاج إيران من النفط كمـــا تقلص حجم الصادرات النفطية إلى الخارج. وأدت العقوبات النفطية إلى فقدان إيران 35-50 مليار دولار. فضلاً عن ذلك بدت إيران معزولة عن النشـــاط البنكي العالمي (منظومة ســـويفت)[62] ونظام تأمين النقل البحري وهو ما عرقل التبادل التجاري.

وفي عـــام 2011م بلغ حجم التبادل التجاري الروســـي الإيـــراني 3.7 مليار دولار ثم انخفض في العام التالي إلى 2. 3 مليار دولار.

obeikan.com

ومنذ عام 2006م انحصرت المشـروعات الروسية في إيران في بناء مفاعل توليد الكهرباء بالطاقة النووية في بوشهر وتطوير جزء من الخط الحديدي **تبريز – أزارشهر**.

أدى حرمان إيران من الاسـتفادة بمنظومة **سـويفت** البنكية في عام 2012م إلى وضع عراقيل كبيرة في عمل البنوك الروسية مع إيران.

وفي عام 2012م اختتمت المفاوضات بين كبريات الشركات الروسية والسلطات الإيرانية حول إنشاء عدد من المشرعات دون تحقيق نتيجة. وبعد عامين من المباحثات رفضت شركة "**غاز بروم نفط**" تطوير حقل "**أزار**".

وقـد أدى توقيع الاتفاق بـين إيران والغرب إلى بعض العواقـب الوخيمة على الاقتصاد الروسي. فقد أدت إعادة تصدير النفط الإيراني إلى انخفاض أسعار النفط عالميًّا. كانت إيران في حاجـة إلى الموارد الماليـة والوقت لإعادة تأهيل قطاع النفط الذي كان على حافة الانهيار التام. كانت البنية الأساسية في قطاع إنتاج ونقل الغاز في حالة مزرية. واستطاعت روسيا بما لديها من خبرات كبيرة في قطاع الغاز من المساهمة في بناء العديد من مشاريع الغاز الإيرانية. وتم توقيـع عدد من لاتفاقيات التعـاون في مجال أبحاث الفضاء وبناء الطائرات. كما أعلنت شركة السكك الحديدية الروسية عن كهربة خطوط السكك الحديدية الإيرانية.

وبقي التعاون في مجال واردات السلاح الروسي الأهم والأكثر فعالية في العلاقات الثنائية بين البلدين.

ورغـم ذلك كانت هناك أسـباب موضوعية لظهور عراقيل أمام توطيد التعاون الروسـي الإيراني.

لم تكن روسـيا قادرة على المنافسـة في السـوق الإيراني. وكان الإسـهام الأكبر هو من الحكومة أو من كبريات الشـركات الروسـية مثل "**روس اتوم**" و"**غاز بروم**" و"**غاز بروم نفط**" و" **لوكا ويل**" و" **زاروبيج نفط**" و" **تات نفط**" و" **ستروي ترانس غاز**" و**شركة السـكك الحديدية** و"**غاز**"؟ والأمر نفسـه من الجانب الإيراني. أما أصحاب المشروعات المتوسـطة والصغيرة فلم يكن لديهم القدرة على المنافسـة والحصول على حصة مناسـبة في التعاون التجاري والاقتصادي الروسي الإيراني.

ولم يكن السـوق الإيراني في حاجة إلى المصنوعات الروسـية نظـرًا لتخلفها عن نظيراتها الغربية. وذلك على الرغم من انخفاض سـعرها بالمقارنة. كانت هناك معوقات أخرى تمثلت في نقص المعلومات عن الطرف الآخر والبيروقراطية الشـديدة في البلدين والمستوى المنخفض في العلاقات الإنسانية وقلة عدد السائحين من البلدين.

ووفقًـا لبيانات البنك الدولي في عام 2013 احتلت إيران المرتبة 147 في مؤشـر حماية الاسـتثمار. في حين احتلت نيوزيلندا المرتبة الأولى والولايات المتحدة المرتبة السادسة وروسيا المرتبة 115 وأفغانستان 189. [63]

كمـا مثلت طريقة التفكير الإيرانية معوقًا إضافيًّـا أمام التعاون الاقتصادي حيث كانت تقدم مبدأ ''**التقية**'' في المعاملات التجارية. وقد اعتاد الشـيعة على إخفاء نواياهم وآرائهم في البلدان ذات الأغلبية السنية.

ويرى الباحثون أن ''أغلب العوامل السـلبية التى أثرت على تطور العلاقات بين روسـيا وإيران تتسـم بالموضوعية. وتتمثل في الهيكل السياسـي والإيديولوجـي والحكومي في إيران والسياسـة الداخلية والخارجية الإسلامية والفسيولوجية الوطنية وخصوصية العادات والتقاليد. ويعـني ذلك أنه من الضرورة التعرف والإلمام الكامـل بالخصوصيات الثقافية والدينية الإيرانية للاستفادة منها في العلاقات الاقتصادية والاقتصادية مع مجتمع الأعمال الإيراني''[64].

وقد لعبت الشـراكة الروسية الإيرانية في مكافحة الإرهاب والتطرف دورًا مهمًّا وأصبحت أساسًا لقيام تعاون عسكري تقني بين البلدين. وسنعود للحديث عن ذلك بالتفصيل.

واقتبس هنا رأي الباحث الإيراني **كايخان بارزيجار**: ''كان التوقيع على الاتفاق النووي بـين إيران ومجموعة ''1+5'' وإمكانية التقارب بين طهران وواشـنطن باعثًا على الظن بأن ثمة برودًا يمكن أن يصيب العلاقات الروسـية الإيرانية وأنها لن تصبح بذات الدفء والتنوع. غـير أن الانفراجة التى حدثت في علاقاتنا بأمريكا لا تعني التخلي عن علاقاتنا التقليدية مع موسكو.

فتلك العلاقات تقوم على منطق اسـتراتيجي يفرض علينا الدفاع عن مصالح البلدين في مجال الأمن كأولوية. أما المصالح الاقتصادية فتأتي في المرتبة التالية. غير أن التقارب مع أمريكا لا يمكن تفسـيره برغبة إيرانية في إقامة علاقات استراتيجية مع هذه الدولة بقدر كونه تهديدًا

obeikandl.com

عســكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا لمصالحنا في إيران. وتقدر روسيا الدور الذي تلعبه إيران وترحب ببقاء إيران قوية واثقة من نفســها قادرة على البقاء رمانة ميزان للاســتقرار في الحدود الجنوبية لروسيا. كما تؤمن روسيا بضرورة دعم مؤسسات الدولة في الدول المهمة في المنطقة"[65].

أفغانستان. . البعيدة القريبة

تبدو أفغانســتان بلدًا بعيدًا عن روسيا. فالمســافة بين البلدين تقدر بآلاف الكيلومترات وتفصلهما أراضي كازاخســتان وطاجكســتان وقيرغيزيا الشاســعة. وبعد أن سيطرت حركة **طالبان** على أفغانســتان في التســعينيات حاول القادة في **موسكو** نسيان هذا البلد. إلا أنهم لم يتمكنــوا مــن ذلك. الأمر هنا لا يتعلق فقط بأن **موســكو** كانت مازالت تعاني من آلام جراح الحرب الأفغانية. بل إن التهديدات القادمة من هناك يمكنها أن تزعزع استقرار البلدان الســوفيتية السابقة في آســيا الوســطى وأن يمتد ذلك إلى حدود كازاخستان ومن ثم مباشرة إلى روســيا؛ ولذا فقد دعمت **موســكو** العمليات العسكرية التى قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية وحلف الناتو ضد **طالبان** بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م.

وقد قامت قوات تحالف الشــمال بدعم روسي إيراني بالســيطرة على **كابول** قبل قدوم الأمريكيين. وتم توفير ممرات للنقل عبر الأراضي الروسية عبرت خلالها قوات حلف الناتو إلى أفغانســتان وساعد في تقديم خدمات لوجستية لقوات الحلف. وكان هناك تبادل للمعلومات غــير أن التعاون بين الطرفين لم يتقدم أكثر من ذلك. فقد كانت المعضلة الأفغانية على قدر كبير مــن التعقيد والتناقضات؛ ولذا فإن مؤلف هذه الســطور يفضل أن يترك الحديث عن هذا الموضوع للمتخصص الأول في الشؤون الأفغانية والدبلوماسي والسفير السابق لروسيا في كابول في الفترة بين عامي 2004-2002م.

يقول **م. كوناروفسكي**[66]: في أكثر من لقاء صحفي قمت بتقييم الوضع في أفغانستان؛ ولذا فإنني هنا أعيد ما سبق أن صرحت به.

المؤلِّف: لا بأس. فلدينا قراء جدد.

م. كوناروفسكي: كان حكم طالبان يتسم بالدكتاتورية القاسية وعادت البلاد إلى حقبة القرون الوســطى المظلمة. ولولا "**القاعدة**" لظلت حركة **طالبان** ممســكة بزمام الحكم لفترة طويلة. فقد قرر **ابن لادن** أن يبني قاعدته الرئيســة في الجبال. وفيما يتعلق بالأمريكيين فإنني

obeikandl.com

أعتقد أنهم اضطروا للتدخل في أفغانستان. وفي فترة ما كان القادة هناك يميلون إلى الاعتراف بنظام **طالبان** وحاولوا إقناعنا نحن بذلك حتى، وكانوا يقولون: ''لم القلق. لا يمثلون أي مصدر للخوف بالنسبة إليكم''. أتذكر ذلك جيدًا لأنني كنت أعمل حينها في سفارتنا بواشنطن وكلفت بتولي الملف الأفغاني. كانت **طالبان** بنسبة كبيرة صناعة باكستانية. وحاولت إدارة **كلينتون** الاستفادة من هذا العامل لمصلحتها. وبعد الأحداث الإرهابية في سبتمبر 2001م لم يجد الأمريكيون سبيلاً أو مخرجًا. فالحياة أجبرتهم على التورط أكثر فأكثر وتحمل المزيد من الالتزامات بما فيها إعادة بناء أفغانستان الجديدة وفقا للطراز والنموذج الغربي. فماذا كانت النتيجة؟ اليوم نرى اقتراب انسحاب القوات الأمريكية وحلف الناتو من أفغانستان بعد فشلها في حل أي من المشكلات هناك وعدم تمكنها من توفير الاستقرار وتحول هذه الدولة إلى منطقة تهدد بانفجار الوضع في البلدان المجاورة لها.

المؤلِّف: في بداية القرن الحالي كنا قد تخلينا عن السياسة الموالية لغرب والتي خضعنا لها في التسعينيات.

م. كوناروفسكي: نعم. لكن وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي مباشرة لم يكن بمقدور **موسكو** أن تفعل غير ذلك لأن القيادة السياسية في الدولة حينها كانت ترى أنه يجب التخلي عن الإرث السوفيتي بالكامل بوصفه إرثًا ضارًّا وغير ضروري بالمرة. لم تكن القيادة الروسي تفهم أن المصالح الجيوسياسية لا تتوقف على الأيدولوجيا. كان السعي للالتحاق بركب الغرب بأي طريقة والفهم الساذج للنظام العالمي سببًا في ارتكاب القيادة الروسية أخطاء كان لها انعكاساتها التى امتدت لسنوات لاحقة؛ ولذا توجب علينا خلال العقد الماضي تصويب هذه الأخطاء وما زلنا حتى اليوم نعمل على ذلك. انظر معي على سبيل المثال: اليوم تكرر السياسية الخارجية الروسية تقريبًا نفس الموقف الذي تبناه الاتحاد السوفيتي في سعيها لتحسين وتوطيد علاقاتها مع بلدان العالم الثالث ومع الحلفاء السابقين للاتحاد السوفيتي. كما تسعى إلى إرساء علاقات شراكة مع بلدان الاتحاد السوفيتي السابق واستئناف العلاقات مع بكين. غير أنه مازالت هناك الكثير من التحديات ويمكن أن يتحول التوتر الحالي في العلاقات بين روسيا والغرب إلى مأزق جديد في السياسة العالمية بأكملها.

المؤلِّف: هل تعتقد أنه كان من الخطأ التخلي عن دعم نظام نجيب الله في أفغانستان بعد انهيار الاتحاد السوفيتي؟

م. كوناورفسكي: من الصعب الإجابة على هذا السؤال. من السهل اليوم أن نحكم على الأمور. لم يكن المجاهدون أو الغرب في حاجة إلى نجيب الله كشخص ورجل دولة. وقد فقدته روسيا كحليف سابق عندما تخلت عنه وخذلته. وقد تكرر نفس الموقف من قبلنا تجاه العديد من حلفائنا السابقين في بلدان أخرى.

المؤلِّف: وكيف كانت علاقة روسيا **بطالبان؟**

م. كوناروفسكي: بطبيعة الحال كانت علاقة سلبية. فعندما اضطر المجاهدون الأفغان إلى القتال ضد **طالبان** من أجل البقاء لم يخجل هؤلاء من طلب العون من روسيا. وبالفعل قامت روسيا بمساعدتهم. ومن الصعب تصور ما حدث والتحولات المفاجئة في الأحداث. كان هدفنا مساعدة حكومة الرئيس **برهان الدين رباني** التي تعتمد على تشكيلات عسكرية من المجاهدين السابقين وتحالف الشمال. كان هدفنا عدم السماح لطالبان باحتلال أفغانستان والوصول إلى حدود الاتحاد السوفيتي السابق. قمنا بالتنسيق مع الأمريكيين كي لا يتم الاعتراف بحكومة **طالبان**. وبدون مبالغة أقول إن روسيا بذلت جهودًا ضخمة في هذا الإطار.

المؤلِّف: هل ترى أن عدم اعتراف واشنطن بنظام **طالبان** كان إنجازًا للدبلوماسية الروسية؟

كوناروفسكي: بالتأكيد. لو لم تقم **موسكو** بأي جهد لكان الأمر انتهى على نحو آخر. ففي نهاية عام 1996م بحث المسؤولون في وزارة الخارجية الأمريكية علانية إمكانية الاعتراف بنظام **طالبان**. وقد أجرت واشنطن في تلك الفترة مباحثات نشطة مع جيران أفغانستان بما فيها دول آسيا المركزية. كانت الخطة على النحو التالي: في البداية يجب الاعتراف **بطالبان** من قبل الجيران وهو ما فعلته باكستان وبعض الممالك العربية. ثم تتبعها باقي دول العالم.

وبشكل عام نقول: إن واشنطن تحكم على مستوى الديمقراطية أو الديكتاتورية في أي دولة من منطلق مصالحها السياسية الخارجية وقواعدها الإيديولوجية الخاصة. كانت تلك فترة الرسولية الفكرية العدوانية التي شكلت أساس السياسة الخارجية الأمريكية واكتسبت أشكالاً متطرفة جديدة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والذي كان يمثل بالنسبة لهم "**إمبراطورية الشر**" ونقطة.

لاحظ معي: بعد انهيار الاتحاد السوفيتي خلعت السياسة الروسية رداءها الأيديولوجي فيما تحولت نظيرتها الأمريكية إلى النقيض وتبنت أفكار "**الدولة صاحبة الرسالة**". وفي الظروف الدولية الحالية تستطيع واشنطن أن تضع في اعتبارها خصوصية هذه الدولة أو تلك وفي الوقت نفسه تظهر احتقارًا وامتهانًا علنيا للخصوصيات التاريخية لدول أخرى.

كل شيء يعتمد على البرجماتية الأمريكية الأيديولوجية والاقتصادية والعسكرية والسياسية. لا وجود للتعاطف. وهنا يختفي منطق إظهار مشاعر الكراهية أو عدم القبول تجاه زعيم ما. بدا أنه من أهم ميزات نظام **الأسد** الأب ومن بعده الابن أن دمشق لم تمثل إزعاجًا لإسرائيل الحليف الاستراتيجي لواشنطن في الشرق الأوسط التى كانت تحتل أراضي الجولان السورية. أما إذا وصل الإسلاميون إلى السلطة فسوف يطالبون بإعادة كل شيء إلى الوراء وستشتعل حرب شاملة بين إسرائيل والعرب. وبدا أنه أن تدعم أشخاصًا يمكن أن يتسببوا في مشاكل بالنسبة لك في المستقبل هو أمر لا يتسم ببعد النظر. غير أن هذا ما يحدث اليوم.

الأمر لا يستحق أن نتوقع من الأمريكيين تفهمًا لمواقفنا. هذا محض خيال. يجب فقط أن نتقبل الولايات المتحدة الأمريكية كما هي وأن نرد عليهم بما يتفق ومصالحنا. من الأفضل بالنسبة لنا الاتفاق معهم. ولكن يحتاج الأمر إلى امتلاك القوة الحقيقية، وليس فقط الناعمة. فقد كانت السذاجة التى اتسمت بها السياسة الخارجية السوفيتية في السنوات الأخيرة والإجراءات التى تبناها الديمقراطيون الليبراليون في السنوات الأولى بعد الانهيار سببًا في تكبد روسيا لخسائر فادحة.

المؤلِّف: ولكن إذا عدنا إلى عام 2001م إلى أي مدى كان موقفنا يعتمد على رغبتنا الصادقة في إقامة علاقات ود وصداقة مع الغرب، ومتى غلبنا المصالح البرجماتية؟

م. كوناروفسكي: كانت المصالح البرجماتية هي الغالبة. فالإرهاب كان يمثل وما زال التهديد الأكبر على روسيا. قمنا بانتهاج سياسة دقيقة ولم نشارك في أي عمليات عسكرية مباشرة في أفغانستان. كانت واشنطن تدعونا للانضمام إلى التحالف وكنا نرفض بشكل لبق. وكان هذا موقفًا سليمًا من جانبنا. وعندما تم فرض الديمقراطية وفق النموذج الأمريكي على الأفغان وعندما أصبح وجود القوات العسكرية يثير غضبًا شعبيًّا من السكان أصبحنا على يقين من ضرورة تغيير الوضع هناك.

وإذا اعتبرنا أن قرار التدخل الأمريكي في أفغانستان والقضاء على بؤرة الإرهاب الدولي هناك هو أمر مفيد بالنسبة لروسيا فإن محاولات واشنطن اللاحقة تلقين الأفغان كيفية الحياة كانت خطأ كبيراً. وبدون شك تشكلت نخبة شابة كانت بعيدة كل البعد عن الشعب وعن الواقع الأفغاني. وكانت تلك مأساة أفغانستان الحقيقية.

المؤلِّف: هل استعان الأمريكيون بالتجربة الروسية؟

م. كوناروفسكي: كانوا يرغبون الاستفادة منها. فقد درسوا هذه التجربة وقاموا بدعوة العسكريين السوفييت المتقاعدين إلى واشنطن واطلعوا على الكتب والمذكرات التي كتبها مواطنونا عن الحرب في أفغانستان واستعانوا بآراء الخبراء والعلماء السياسة الدوليين ومنهم الروس. إلا أنه وعلى أرض الواقع لم يؤد ذلك إلى أي نتيجة تذكر على الرغم من قيامهم بتطبيق السياسات الإدارية والتنظيمية التي كانت مازالت فعَّالة منذ الحقبة السوفيتية. فعلى سبيل المثال قام الأمريكان بتأسيس ما سمي "**فرق إعادة البناء البلدية**" والتي تضم عناصر من الخبراء العسكريين والاقتصاديين والسياسيين. وبفضل هذه الفرق سعى الأمريكان إلى ربط السلطة المركزية بالأقاليم. كما حاول الجيش أيضًا ألا يكتفي فقط بالقتال بل شارك في عملية إعادة البناء. وفي ظروف أفغانستان لم يكن من السهل إيجاد حلول جديدة.

من الصعب إعادة تشكيل المجتمع الأفغاني. فالولاء القبلي والإسلام المحافظ متجذران في المجتمع بشدة.

المؤلِّف: وكيف ترى مستقبل أفغانستان؟

م. كوناروفسكي: إذا شئت الصدق أنا لا أشعر بالتفاؤل. فلكي تحدث تطوراً في مجتمع شرقي يجب أن تمتلك سلطة قوية لا ديمقراطية على النهج الغربي. وإلا فستتحول الدولة إلى ساحة للكراهية والنزاعات والشقاق وسرعان ما سيتورط فيها الجيران الذين ما زالوا يرون في أفغانستان عمقًا استراتيجيا في سياساتهم الإقليمية. وأصبحت أفغانستان في الفترة الأخيرة ساحة للمناورات بين العديد من اللاعبين السياسيين مقارنة بالثمانينيات. ولكل من هؤلاء مصالحه في هذا البلد.

المؤلِّف: وماذا يتوجب على روسيا فعله إزاء أفغانستان؟

م. كوناروفسكي: في كل الأحوال لا تستطيع روسيا الالتزام بالحياد تجاه الوضع في أفغانستان وتجاهل ما يحدث هناك على الرغم من غياب أي مصالح استراتيجية لنا في هذا البلد حاليًّا مقارنة بما كان عليه الوضع أثناء الحقبة السوفيتية. سوف تستمر روسيا في بناء علاقات بنَّاءة مع كابول.

ويرجع ذلك لسببين أساسين: **أولاً** أن ذلك يصب في مصلحة مكافحة الإرهاب والتطرف الإسلامي المسلح بشكل خاص. و**ثانيًا** تحقيق هدف تقليص تدفق المخدرات من أفغانستان إلى أدنى حد؛ ولذا فإن إحلال السلام في هذا البلد والعمل على تحويل أفغانستان إلى دولة لا تتسبب في المشاكل لجيرانها سيظل هدفنا الأساسي.

غير أن روسيا ليست في حاجة للعب دور الزعامة في أفغانستان لا سيما أنها ستواجه بمقاومة شديدة من الآخرين. من الحكمة أن نبقى في الصف الثاني محافظين على مصالحنا وأن نسعى في الوقت نفسه إلى تجنب أي التزامات يمكن أن تفرض علينا من شركائنا تجاه أفغانستان. يجب أن ننسق مع جيراننا في آسيا المركزية ليس أكثر وأن نضع خطوطًا حمراء يتوجب على أفغانستان عدم تجاوزها.

المؤلِّف: كيف هي علاقة الأفغان بروسيا حاليًّا؟

م. كوناروفسكي: لم ينس الأفغان الماضي أبدًا ولكنهم يتعاملون مع الروس بإخلاص. رغم أن هناك أيضًا من يبغضنا. فهؤلاء الذين قدموا من أمريكا وتولوا مناصب حكومية ما زالوا يتبنون مواقف معارضة لروسيا. رغم أنه من غير المستبعد أن يغيروا مواقفهم مع الوقت. في السنوات الأولى بعد زوال **طالبان** سعت الإدارة الجديدة في **كابول** إلى توجيه اتهامات لروسيا تحملنا المسؤولية عن جميع الأخطاء وحالات القتل. لكن الأفغان بطبعهم حكماء. وعندما أصبحت لديهم الفرصة لعقد مقارنة بيننا وبين الأمريكيين أصبحوا يتذكرون الروس ببعض الحنين للماضي.

المؤلِّف: هل تؤثر أجزاء الحرب الباردة المحدودة الجديدة على الوضع في أفغانستان؟

م. كوناروفسكي: بدون شك. سيأتي اليوم الذي ينسحب فيه الأمريكان من أفغانستان كما وعد بذلك **أوباما**. صحيح أنهم سيبقون قواعد عسكريه لهم هناك إلا أن الرئيس الأفغاني الجديد **أشرف جاني** قد وقَّع على اتفاقيه التعاون العسكري الاستراتيجي مع واشنطن. ما

حاجتهم إلى ذلك؟ سألت أحد الدبلوماسيين الأمريكيين هذا السؤال فرد قائلاً: ''**تحسبًا لأي ظرف**''. وفي واشنطن يبحثون التنسيق مع الصينيين إزاء أفغانستان لتحقيق توازن في التوتر الثنائي في منطقة آسيا والمحيط الهادي. ولن يقوم الأفغان بدفع ثمن صفقة الطائرات الروسية التى اشتراها الجيش الأفغاني. كما تم إيقاف نقل الشحنات عبر أراضينا. أعتقد أنه حتى البيت الأبيض لا يدري ما سيحدث مستقبلاً. ولكني على ثقة أنه إذا تم التعاون الصيني الأمريكي فإن مساعي واشنطن ستكون موجهة نحو شق الصف بين **موسكو** و**بكين** في منطقة آسيا المركزية؛ ولذا يجب أن نتحلى باليقظة. ربما تحدث الكثير من المفاجآت. **فطالبان** يعملون على ترسيخ تواجدهم في كثير من المحافظات. والجيش والسياسة الأفغانية لا تبعث على الأمل. وهناك عمليات ترحيل جماعية للسكان. ويومًا بعد يوم تتزايد التناقضات العرقية والدينية. وعلى مسافة قريبة يزداد نفوذ تنظيم **داعش**. ولم تعد الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي ينفقان كالسابق في التنمية الاقتصادية والاجتماعية في أفغانستان. فكيف تضمن الولاء للمستقبل؟

المؤلِّف: في الوضع الحالي هل ستظل **واشنطن** رافضة للتعاون مع **موسكو** إزاء الوضع في أفغانستان؟

م. كوناروفسكي: حتى الآن نعم.

روسيا ودول شبة الجزيرة العربية: بعض من الثمار.

شهدت فترة ما بعد **جورباتشوف** تخلي روسيا عن الإلحاد الرسمي وتقسيم البلدان الأخرى إلى ''**رجعية**'' و''**تقدمية**'' وسعيًا منها للبحث عن شركاء لها في منطقة الخليج العربي. غير أنه لم يكن من السهل العثور على مشتركات كثيرة بين الجانبين.

وفي التسعينيات غابت الاستثمارات الخليجية عن روسيا حيث بقي الحذر سيد الموقف. كان هناك تخوف من قبل رأس المال العربي من الدخول إلى السوق الروسية وهو يجهل قوانينها وتقاليدها بالإضافة إلى عدم اليقين في استقراره بعد. وقد أخبرني المستثمرون السعوديون ''أن رأس المال بطبيعته جبان ويحتاج إلى ضمانات. وهو شيء ما زال مفقودًا في روسيا''.

واتسمت العلاقات النفطية بين روسيا والسعودية بالتعقيد. فالبلدان هما أكبر منتج ومصدر للنفط في تلك الفترة. إلا أن المملكة العربية السعودية عضو في منظمة أوبك وتتمتع بنفوذ كبير بين دول هذه المنظمة. وكثير ما كانت روسيا تتعرض لمنافسة من أوبك وصراع معه على تحديد أسعار النفط العالمية. كانت المملكة حريصة على دعم أسعار النفط وكانت تملك المقدرة للتحكم في حجم الإنتاج والصادرات من المنظمة.

وفي التسعينيات ونتيجة لخصخصة قطاع النفط الروسي استولت 50 شركة روسية على ثروات هائلة ونفوذ سياسي كبير في بلد يعاني الفقر.[67]

أما في المملكة فهناك شركة **أرامكو** وهي شركة وطنية وأصبحت مع الوقت أداة مهمة في سياسة الدولة السعودية. وخلال التسعينيات والعقد الماضي من القرن الحادي والعشرين ضاعفت روسيا صادراتها النفطية وذلك لعدم وجود سبيل آخر ببساطة.

يقول **يو. شافرانيك**[1]: ''ليس من الصواب القول إن شركاتنا النفطية قد ضاعفت من تلقاء نفسها حجم الإنتاج والصادرات النفطية. ففي تلك الفترة وبمبادرة مني تم إصدار قانون ينقل ملكية جميع آبار النفط إلى الدولة. ولم يكن من سبيل في تلك الفترة أمام الدولة سوى تصدير النفط حتى يتم التغلب على مشاكلنا الاقتصادية حيث تم الاستفادة من مداخيل النفط. وأود الإشارة إلى أننا لم نكن نحلم بأن نحصل على هذه المداخيل الضخمة في عصر **كوسيجين**. واستفدنا من هذه الموارد في تطوير حقول النفط في تمويل وتطوير صناعات الفضاء الروسية وتحديث الأسطول النووي الروسي.''[68]

ومنذ خريف 2001م سعت المملكة العربية السعودية وأعضاء آخرون في منظمة أوبك إلى الاتفاق مع روسيا على تقليص إنتاج النفط للإبقاء على أسعار مرتفعة له. ورفضت **موسكو**.[69] غير أن المصالح النفطية المشتركة أدت إلى غياب هذه الخلافات في العقد الماضي.

وكما هو الحال في الاقتصاد كانت هناك أيضًا بعض الخلافات السياسية بين البدين. حيث دعمت المملكة العربية السعودية وغيرها من بلدان الخليج الجماعات الإسلامية في شمال القوقاز. وكان زعيم المقاتلين الشيشان **شامل باسايف** يتلقى دعمًا ماليًّا ومتطوعين من بلدان الخليج.

١ يو. شافرانيك – رئيس إدارة إقليم تومين (١٩٩١-١٩٩٣) ووزير الطاقة الروسي (١٩٩٣-١٩٩٦) ورئيس اتحاد صناع النفط والغاز الروسي. وفي عام ٢٠٠٤م تم انتخابه رئيسا للجنة استراتيجيات الطاقة والتنمية بغرفة التجارة والصناعة الروسية.

obeikandl.com

وقد صرح ممثل الخارجية الأمريكية أن حجم المساعدات المالية التى حصل عليها الانفصاليون في الشيشان من دول الخليج خلال الفترة بين عامي 1997-1999م أكثر من 100 مليون دولار. لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية أو بلدان الخليج يطلقون عليهم لفظ ''**إرهابيين**''. [70] والرئيس الشيشاني **أصلان ماسخادوف** قام بزيارة إلى المملكة العربية السعودية في 1997م والتقى بقادة سعوديين ومسلمين[71]. وفي مؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامي الذي عقد في يونيو 2000م في **كوالا لامبور** وصف مندوب السعودية العملية العسكرية الروسية في الشيشان '' بأنها عمل لا إنساني ضد مسلمي الشيشان''[72].

وعلى المستوى الحكومي أظهرت السعودية ودول الخليج نوعًا من التحفظ وأعلنت عن عدم رغبتها في التدخل في الشؤون الداخلية لروسيا.

و كان للتقارب الروسي الإسرائيلي أثره السلبي على العلاقات الروسية الخليجية. كانت بلدان الخليج قد اعتادت على التقارب الأمريكي الإسرائيلي وكانت تكتفي بالانتقاد والإدانة بالتصريحات. أما التقارب الروسي مع إسرائيل فكان يثير غضب وحنق هذه الدول.

كما كان لأحداث 11 سبتمبر 2001م تأثير كبير على العلاقات السعودية الروسية. حث ساءت العلاقات الأمريكية السعودية وأصبح من الممكن ولو بشكل رمزي تحسين العلاقات بين روسيا والسعودية. ولم تعد قضية الشيشان في أولويات الإعاقة بين البلدين. وسعت **موسكو** إلى التقارب أكثر مع العا لم الإسلامي وحتى المشاركة في أعمال منظمة المؤتمر الإسلامي. كانت الرياض هي البوابة الرئيسية لتحقيق ذلك.

في تلك السنوات كانت هناك حملة في أمريكا ضد الرياض وصفت فيها الأخيرة بأنها ''**مركز الشر**'' في الشرق الأوسط والتي تمثل خطرًا على الولايات المتحدة الأمريكية.[73] وبدأت الاستثمارات السعودية تغادر أمريكا إلا أن تحويل هذه المبالغ الضخمة (حوالي 200 مليار) هو أمر غير ممكن من الناحية العملية. [74]

وعلى الجانب الآخر أخذ المسؤولون في **الكرملين** يطلقون تصريحات الإشادة بالمملكة والتأكيد على دورها وثقلها السياسي والاقتصادي الكبير.

وساعد التدخل الأمريكي في العراق في عام203م على إحداث تقارب بين موسكو والرياض حيث كانت روسيا تعارض السياسة الأمريكية وفي الوقت نفسه رفضت المملكة

obeikandl.com

المشاركة في التحالف ضد العراق. لم تكن واشنطن تنصت إلى أحد. وتوقفت الحملة السعودية على السياسات الروسية في شمال القوقاز.

وقام ولي العهد السعودي الأمير **عبدالله بن عبد العزيز** بزيارة إلى **موسكو** في سبتمبر 2003م. وفي المقابل قام **فلاديمير بوتين** بحضور قمة منظمة المؤتمر الإسلامي في ماليزيا في أكتوبر 2003م وحصلت روسيا في هذه القمة على صفة مراقب بالمنظمة. واستقبلت الرياض بحفاوة الزعيم الشيشاني **أحمد قديروف** بوصفه الممثل الشرعي للشعب الشيشاني. ليس ذلك فحسب بل تم منحه شرف المشاركة في غسل الكعبة المشرفة بصحبة الأمير **عبد الله**.

وفي أثناء استقباله للأمير **عبد لله** في موسكو أكد الرئيس **بوتين** لضيفه: '' كنا دومًا نعتبر العالم الإسلامي والعالم العربي شركاء وحلفاء لنا''[75] وصرح الأمير **عبد الله** أن السياسة الروسية تقوم على مبادئ وهي سياسة متزنة وحكيمة[76] كما أكد على تطابق المواقف بين البلدين فيما يتعلق بالوضع في الشرق الأوسط والعراق.[77]

وتم التوقيع على عدد من اتفاقيات التعاون في مجال النفط والغاز. وبقيت نقاط الخلاف بين البلدين إلا أنه كان من الواضح أنهما يبذلان جهدًا مشتركًا للتقارب. أخذ المسؤولون السعوديون يؤكدون في مرات عديدة على أن المشكلة الشيشانية هي شأن داخلي روسي.

وفي يناير 2004م فازت شركة ''**لوكاويل**'' بصفقة تطوير عدة حقول نفط وغاز في منطقة الربع الخالي السعودية[78]. وفي17 مارس 2004م تم التوقيع على عقد مع ''**سعودي ارامكو**'' وتأسيس شركة مشتركة باسم ''**لوك سار**'' (حصة **لوكا** ويل 80% وحصة **أرامكو** 20%). كانت تلك خطوة رمزية تدل على التقارب بين البلدين. وخلال عدة سنوات تمكنت الشركة الجديدة من اكتشاف عدة آبار لغاز المكثف.

وبدأت اتصالات تجري بين البلدين لاستيراد السلاح الروسي[79]. وفي ديسمبر 2004م وكرسالة تضامن ودعم تبرعت الحكومة السعودية بمبلغ 100 ألف دولار أمريكي لضحايا الحادث الإرهابي في قرية **بيسلان**[80] والذي راح ضحيته 333 شخصًا منهم 186 طفلاً[81].

وتُوفي الملك **فهد بن عبد العزيز** في أغسطس 2005م وخلفه الملك **عبد الله** واستمرت السياسة السعودية دون تغيير.

obeikandl.com

وفي فبراير 2007م وبعد خطابة الشـــهير في مدينـــة **ميونيخ** قام الرئيس **بوتين** بزيارة إلى المملكة العربية الســـعودية وكان في استقباله عند سلم الطائرة الملك **عبد الله بن عبد العزيز**. وتم أثناء الزيارة منح الرئيس **بوتين** وســـام الملك **عبد العزيز** وقام الزعيمان بأداء رقصة عربية بالسيف. وفي علامة على إظهار الاحترام للتقاليد المحلية ارتدت الصحفيات المرافقات للرئيس **بوتيـــن** الحجاب. وتبادل الزعيمـــان كلمات الود والترحاب وتم التوقيع على 10 اتفاقيات في المجال الاقتصادي والثقافي.[82]

وبلغ حجم التبادل التجاري بين البلدين في عام 2004م حوالي 143 مليون دولار.[83] وفي عام 2009م قفز هذا المبلغ إلى 363 مليون دولار.[84] وظل هذا الرقم ضئيلاً من وجهة نظر المسؤولين في البلدين إلا أن الارتفاع المستمر كان باعثًا على الأمل في المستقبل. أما فيما يتعلق ببعض وسائل الإعلام السعودية وثيقة الصلة بالغرب فقط ظلت المواد والمقالات المعادية لروسيا والرئيس **بوتين** بشكل منتظم.

وشـــهد العقد الماضي إجراء مشاورات سياسية ثنائية على مستوى نواب وزير الخارجية في البلدين ورؤســـاء الإدارات في وزارة الخارجية. وقد عقدت آخر جولة مباحثات في الرياض في فبراير 2011م حيث ترأس الوفد الروسي السيد **أ. سلطانوف** الممثل الخاص للرئيس الروسي في الشـــرق الأوســـط ونائب وزير الخارجية. وفي نوفمبر 2007م قام الأمير **سلطان بن عبد العزيز** ولي العهد السعودي ووزير الدفاع حينها بزيارة إلى **موسكو**.

ويعـــد التعاون في مجال الفضاء من أكثـــر المجالات نجاحًا في العلاقة بين البلدين. وقامت حاملات الصواريخ الفضاء الروسية بإطلاق 14 قمرًا صناعيًّا سعوديًّا إلى الفضاء منذ سبتمبر 2000م. ومنذ عام 2008م أجرت وزارة الخارجية الروســـية ومؤسسة "**روسكوسموس**" لعلوم الفضاء مباحثات مع الجانب الســـعودي للتعاون في مجال الأبحاث ودراسات الاستفادة من الفضاء في الأغراض السلمية.

وفي مجال الطاقة تم تبادل للزيارات على مستوى الوزراء. وفي أكتوبر 2002م تم تشكيل للجنة الحكومية الروســـية السعودية المشـــتركة للتعاون التجاري والاقتصادي والعلمي والتقني. ولم تتســـم اجتماعات اللجنة بالانتظام. كما نشـــط في تلك الفترة مجلس الأعمال الروســـي الســـعودي. وقام ممثلو كبريات الشركات الروســـية بزيارات للمملكة العربية السعودية غير أن هذه الزيارات لم تؤت بثمار تذكر.

obeikandl.com

وقررت الحكومة السعودية تقليص الإنتاج المحلي من القمح منذ عام 2008م حتى وصل الأمـــر إلى التوقف التام عن الإنتاج في عام 2016م. كانت الســـعودية تنتج القمح إلا أن تكلفته تبلغ 7 أضعاف الأســـعار العالمية. دارت مفاوضات حول تأسيس شركات في روسيا لإنتاج الحبوب. وتم تأســـيس شـــركة لهذا الغرض لإنتاج 4 ملايين طن حبوب ســـنويًّا. وقام رجـــال الأعمال في البلدين بتبادل الزيـــارات والتوقيع على اتفاقيات تعاون إلا أن نجاحًا كبيراً لم يتحقق رغم ذلك.

تطورت العلاقات بين أكاديمية العلوم الروســـية ومركـــز الملك **عبد العزيز** للعلوم والتقنية. وفي مارس 2009م كان الوفد الروســـي برئاســـة وزير الثقافة أ. **أفدييف** ضيف الشرف على المهرجان الوطني للتراث السعودي ''**الجنادرية** 2009م''.

وفي الفترة من مايو إلى ســـبتمبر 2011م تم تنظيم معرض للآثار الســـعودية في متحف **الإرميتـــاج** تم خلاله عرض عدد من التحـــف والمعروضات النادرة. وقد حضر افتتاح المعرض من الجانب السعودي الأمير **سلطان بن سلمان** رئيس هيئة السياحة والتراث في المملكة وأول رجل فضاء سعودي.

وفي يونيو 2008م زار المملكة وفد مجلس الإفتاء الروســـي برئاســـة رئيس مجلس الإفتاء **رافيل عين الدين** للمشـــاركة في المؤتمر الـــدولي ''**تحديات العولمة وقضايا العصر**'' والذي عقد برعاية خادم الحرمين الشـــريفين. وفي أكتوبـــر 2008 م عقد في مدينة جده الاجتماع الرابع لمجموعة الرؤية الاســـتراتيجية ''**روسيا والعالم الإســـلامي**''. ورأس وفد روسيا الرئيس **التتارستاني م. شايميف**.

وشـــهدت التسعينيات والعقد الأول من القرن الحالي توقيع عدد كبير من الاتفاقيات بين البلديـــن بما فيها الاتفاق على إجراء مشـــاورات ثنائية بـــين وزارتي الخارجية والتعاون في مجال الرياضة وتجنب الازدواج الضريبي والدخول والثروة (2007م) والنقل الجوي (2007م).

وفي عام 2008م فازت هيئة الســـكك الحديدية الروســـية بصفقـــة بناء 520 كم من الســـكك الحديدية بقيمة إجمالية بلغت 800 مليون دولار. إلا أنه وبعد مرور أربعة شـــهور رفضت المملكة التوقيع على العقد. وربما كانت هناك عروض من منافسين لروسيا. وربما كان السبب يرجع إلى الزيارة التى قام بها الرئيس الأمريكي **جورج بوش** إلى الرياض وعودة الدفء في العلاقات بين البلدين.[85]

وفي عام 2007م فازت شـركة "**ستـرويترانس غاز**" –إحدى أكبر شركات المقاولات الروسـية في بناء مشاريع النفط والغاز– بصفقة بناء خط أنابيب النفط لصالح شركة **أرامكو** السعودية. وبلغت قيمة الصفقة حوالي 100 مليون دولار وتم الانتهاء من المشروع في الموعد المحدد. ولم تفز الشـركة بصفقة أخرى بعدها بالرغم من أنها أصبحت تتمتع بسـمعة كبيرة في المنطقة.

كان المسؤولون في **موسكو** يتعاملون بواقعية في موضوع التعاون مع المملكة. كان التأثير الأمريكي هو الغالب في الحياة الاقتصادية والسياسـية في السعودية. فهناك التعاون العسكري والاسـتثمارات وسفر الآلاف من ممثلي النخبة السعودية لتلقي تعليمهم في الولايات المتحدة الأمريكيـة. كل هـذه العوامل أدت إلى التقريـب أكثر بين البلدين. إلا أن المسـؤولين في السعودية لم يخفوا ترحيبهم بالتقارب مع روسيا، وهو التقارب الذي أثار حنق الأمريكيين.

أصبحـت بلدان الخليج وخاصة الإمارات العربية المتحدة من كبار مسـتوردي السـلاح الروسـي. وافقت هذه الدول على شـراء المنتجات الروسية وإن كان ذلك بكميات صغيرة. وفي عام 2007م احتفلت الإمارات وروسـيا بمرور 15 عامًا على تدشين التعاون العسكري فيما بينهما.

وفي المعرض الدولي الأول للسـلاح الذي نظم في (**أبـو ظبي**) في عام 1993م والذي شاركت فيه العديد من شركات السلاح الدولية كان الحضور الروسي لافتًا[86]. وخلال العشر سنوات التالية رفع حجم التعاون العسكري والتقني بين البلدين إلى مليار دولار[87]. وتلا ذلك تصريحات من مسؤولي البلدين عن تطابق المواقف تجاه القضايا الدولية.

وفي عام 2007م قام الرئيس الروسـي **فلاديمير بوتيـن** بزيارة رسمية إلى الإمارات وهي أول زيارة في تاريخ العلاقات بين البلدين. وفي عام 2009م زار روسـيا الشـيخ **محمد آل مكتوم** حاكم دبي ورئيس الوزراء في الإمارات. كما قام ولي العهد (**أبو ظبي**) الشيخ **محمد بن زايد آل نهيان** بزيارة إلى روسـيا في أعوام 2009 و2012 و2013 و2014 ومرتين في عام 2015م.

وقام كبار المسـؤولين مرات عديدة بزيـارات إلى الإمارات العربية المتحدة ونذكر منهم إ. **شـوفالوف** النائب الأول لرئيس الوزراء و**سيرجي ناريشكين** نائب رئيس الوزراء (2008م) وإ. **سيتشـين** النائب الأول لرئيس الوزراء (2009 و2010م). كما انتظمت اجتماعات

اللجنة الحكومية الروسية الإماراتية المشتركة للتعاون التجاري والاقتصادي والتقني. وتم التوقيع على عدد من الاتفاقيات كما تطورت الاتصالات بين برلماني البلدين.

وفي العامين الأخيرين بلغ عدد الروس المقيمين في الإمارات حوالي 25 ألفًا فيما بلغ عدد الناطقين بالروسية أكثر من 40 ألفًا. وزار حوالي 430 ألف روسي الإمارات في عام 2015م. [88]

وفي التسعينيات والعقد الماضي أصبحت الإمارات العربية المتحدة رابع أكبر مشترٍ في العالم للأسلحة الروسية بعد الصين والهند وإيران. كما بحث البلدان إمكانية الإنتاج العسكري المشترك.

وظهرت أوكرانيا وروسيا البيضاء كمنافس لروسيا في تصدير السلاح إلى الإمارات حيث قاما بتخفيض السعر على الصناعات العسكرية وخدمة ما بعد البيع.

ولم تستطع دول الخليج تجاهل القضية الشيشانية المؤلمة أو السكوت عن العمليات العسكرية ضد الانفصاليين الشيشان. غير أن هذه الدول قد اعترفت بالشيشان كجزء من حدود الدولة الروسية وأدانت العمليات الإرهابية. وعندما قتل الرئيس الشيشاني **أحمدقديروف** مع عدد من المقربين منه أثناء انفجار ملعب **جروزني** في 9 مايو 2004 وصف وزير الخارجية القطري هذا الحادث بالإرهابي» وصرح أن بلاده تدين الإرهاب بكل أشكاله وأيا كان مصدره[89].

وكانت قطر ترتبط بعلاقات جيدة مع روسيا. وفي أبريل 1998م وقعت قطر وروسيا اتفاقية تعاون عسكري إلا أنها لم تدخل حيز التنفيذ. وقام وزير الخارجية القطري الشيخ **حمد بن جاسم بن جابر آل ثاني** بزيارة إلى روسيا التقى خلالها بوزير الخارجية الروسي **يفجيني بريماكوف**[90]. وتم وصف هذه المباحثات «بالناجحة جدًّا»[91].

و في ديسمبر 2001م قام الشيخ **حمد** أمير قطر بزيارة **موسكو** وصرح عن رغبته في تطوير التعاون المشترك[92]. وتم بحث المشاريع الاقتصادية بين البلدين بالتعاون مع شركة **غاز بروم** الروسية والجهود المشتركة في مكافحة الإرهاب الدولي. إلا أن الكلمات لم تتحول إلى أفعال.

إلا أن مقتل أحد القادة الانفصاليين الشيشان في الدوحة في 13 فبراير 2004 مثَّل انتكاسة للعلاقات الثنائية بين البلدين. حيث تم القبض على اثنين من رجال المخابرات الروس

obeikandl.com

وتم اتهامهم بارتكاب هذه الجريمة وكان من المفترض الحكم عليهما بالإعدام[93]. وفي ديسمبر 2004، وبفضل الجهود الدبلوماسية الروسية قامت قطر بإعادة المتهمين إلى روسيا. [94]

وقد شهدت سنوات انهيار الاتحاد السوفيتي قيام الاتحاد اليمني عندما أجبر اليمن الجنوبي الماركسي على الاتحاد مع اليمن الشمالي في 22 مايو 1990م، وظهرت بلد جديدة هي جمهورية اليمن سيطر عليها الشماليون بشكل كامل، وفشلت محاوله مسلحة للانفصال من قبل الجنوبيين. حافظت اليمن على علاقاتها مع روسيا ولكن أصبح التعاون شديد البرجماتية.

وفي مايو 2000م قام وزير الدفاع **إيجور سيرجييف** بزيارة إلى صنعاء وأجرى مباحثات مع الرئيس **علي عبد الله صالح** حول توسيع التعاون الثنائي.[95] وفي عامي 2002م و2004م قام الرئيس اليمني بزيارة إلى **موسكو**. كما تبادل كبار المسؤولين الزيارات.

وفي العقد الماضي استأنفت روسيا التعاون العسكري مع اليمن وقامت بتصدير دبابات وطائرات مقاتله وقاذفات قنابل وغيرها من الأسلحة.[96] كانت العلاقات الاقتصادية بين البلدين غير قوية. إلا أنه كان هناك تطابق بينهما في المواقف السياسية حيث انتقد كلاهما الإرهاب الدولي على الرغم من القبض على العديد من اليمنيين يقاتلون في الشيشان.

اتسمت العلاقات الروسية اليمنية بكونها ودية ووطيدة إلا أن الهيمنة الأمريكية في هذه المنطقة لم تكن محل شك. فقد قام الرئيس **عبد الله صالح** بأربع زيارات إلى واشنطن في أعوام 1990 و2000 و2001 و2004م، واستفاد اليمن من علاقاته مع روسيا لتحقيق توازن أمام النفوذ الأمريكي في المنطقة.

شريك لا حليف (روسيا ومصر في العقد الماضي)

تسارعت وتيرة التقارب الروسي المصري في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. فقد سار كل من البلدين نحو التقارب مع الآخر وبحثًا أوجدا تفاهمًا حول العديد من القضايا الدولية. ويتعلق الأمر هنا بقضية الشرق الأوسط والوضع في العراق والموقف في سوريا ولبنان ومنظومة الأمن في المنطقة. ولعب التنسيق بينهما دورًا كبيرًا في الوصول إلى مخرج من المأزق الذي بدت فيه التسوية الشرق أوسطية وإلى تجنب تصاعد الأزمة.

obeikandi.com

ولعبـــت مصر دور القوة الكبرى في المنطقة وأحد أكبر الدول الإفريقية وأحد زعماء دول عـــدم الانحياز. كانت مواقفها دائمًا تتناقض مع مواقف الولايات المتحدة وهو ما مثّل دافعًا إضافيًّا للتقارب بين موسكو والقاهرة. كانت مصر تتوقع الحصول على مقعد دائم في مجلس الأمـــن في إطار عملية إصلاح الأمم المتحدة. وعلى الرغم من إطالة أمد هذه العملية إلا أن روســـيا بدت أمام خيار صعب حيث كانت هناك بلدان أخرى في إفريقيا تطالب بمقعد دائم وهي نيجيريا وجنوب إفريقيا غير أن التقارب المتبادل بين البلدين لم يتوقف.

وســـعت القاهرة إلى التحرك على كافة المحاور مع منـــح الأولوية لتوطيد علاقاتها بالدول العظمى بما فيها روسيا. وكانت روسيا تقوم بالأمر نفسه سعيًا منها للعودة إلى منطقة الشرق الأوســـط. وقد سمح ذلك للبلدين بتحديث شـــكل ومنهجية العلاقات المتبادلة فيما بينهما وتوسيع التعاون.

وقد لعب تنامي الثقة المتبادلة بين البلدين دوراً كبيراً وهو ما سمح لروســـيا التعرف تفصيلاً علـــى موقـــف العرب ومصر من قضية إيـــران النووية والوضع في ســـوريا ولبنان. لم يكن بين الجانبين أي صدام في المصالح وهو ما ســـاعد على رفع مســـتوى العلاقات الروســـية المصرية بشكل ملحوظ. وقام البلدان ببحث مختلف القضايا الإقليمية وأصبحا على اليقين من تطابق مواقفهما أو تقريبهما.

لم تطلب روســـيا من مصر التخلي عن حلفائها الســـابقين أو عـــدم التعاون مع الغرب ولم تضع ذلك من بين أهدافها. كان من الواضح أن روســـيا لم تســـتطع أن تحل محل الغرب كشريك تجاري لمصر. فالاقتصاد الروسي لم يكن في حال يمكنه من المنافسة في منطقة الشرق الأوســـط. كان النموذج الاقتصادي الروســـي القائم على مركزية الاقتصاد الحكومي قد عفا عليه الزمن. فضلاً عن ذلك كانت النموذج الروســـي في بناء علاقات اقتصادية خارجية غير فعّال. كما تقلصت بشكل كبير فرص التعاون العسكري والتقني.

غير أن التعاون مع روســـيا جعل من القاهرة أكثر ثقة على الســـاحة الدولية وفي المنطقة وفي العالم كله. وهو ما سمح لها بالدفاع عن مواقفها بشكل أكبر ثقة وخاصة في إطار منظمة بلدان البحر المتوســـط وفي التعامل مع حلف **الناتو**. كانت القاهرة قلقة من عملية توســـيع حلف الناتو. كان المســـؤولون هناك يتخوفون من تحول الحلف إلى شرطي العالم، ويتساءلون ما إذا كان الحلف ســـيلتزم بقواعد القانون الدولي ويحترم قرارات المجلس الأمن الدول. كانت

القاهرة تخشـــى أن يلعب حلف الناتو الدور الأكبر في قضية الشرق الأوسط وهو ما يهمش من دور مصر كثيراً. لم تعلن القاهرة عن مخاوفها على الملأ وكانت الاتصالات البروتوكولية بين القاهرة تدور بشكل منتظم بل وتتطور. كما سعت مصر إلى الحصول على دعم فني من قبل الناتو وإعداد كوادرها بالتعاون مع قوات الحلف في مجال مكافحة الإرهاب.

وبالنظر إلى تقاليد العلاقات الروســية المصرية بما فيها داخــل أروقة الأمم المتحدة يمكن القول إن مصر كانت تسعى إلى تطابق المواقف مع روسيا في قضية التسوية الشرق أوسطية.

وفي العقد الماضي نشطت المشــاورات بين وزارتي الخارجية في البلدين وتم تبادل الزيارات والوفود. وبدا جليًّا أن مصر والجامعة العربية حريصتان على التنسيق السياسي مع روسيا حول القضايا المحورية في المنطقة وخاصة التســوية الشرق أوسطية والعلاقات مع إسرائيل وفلسطين وسوريا. كما كانت القاهرة تعول كثيراً على التعاون مع **موسكو** في إطار «الرباعية».

وقد تمت هذه الاتصالات ســواء بشــكل ثنائي أو في إطار جامعة الدول العربية. كانت روسيا من أول الدول التى أقامت علاقات شراكة استراتيجية مع الجامعة العربية. وقد تم توقيع مذكرة تعاون متبادل بين وزارة الخارجية الروسية والأمين العام لجامعة الدول العربية في سبتمبر 2003م.

وقد تم توســيع التعاون بين الجانبين بعد الزيارة التى قام بها الرئيس **بوتين** إلى مقر الجامعة بالقاهرة في 2005م وصدور قرار باعتماد ســفير روســي في الجامعة وهو الســفير الروسي بالقاهرة حينها وكان أول ممثل لدولة أجنبية في الجامعة العربية. [97] كما تم التوقيع على مذكرة جديدة في ديسمبر 2009 بالقاهرة بين وزير الخارجية الروسي **سيرجي لافروف** والأمين العام لجامعة الدول العربية **عمرو موسى**. [98]

وفي بدايــة العقــد الماضي حدث تراجــع ملحوظ في تنفيذ الاتفاقيــات التى وقعت بين إسرائيل والسلطة الوطنية الفلسطينية في **أوسلو** 1993م. ولم تؤت المباحثات الطويلة والشاقة أكلها وبدت عملية المفاوضات في مأزق كبير وهو ما ساعد على استئناف إسرائيل لنشاطها الاســتيطاني وعودة العمليات الإرهابية ضد المواطنين الإســرائيليين. ولم تلــق المبادرة العربية للسلام في 2002م ترحيبًا أو قبولاً من إسرائيل. وكان لهذه الأسباب جميعها تأثير سلبي على الوضع في المنطقة وتعرض بلدان المنطقة ومنها مصر لتحديات صعبة.

obeikandl.com

ولذا فقد دعمت **القاهرة** و**موسكو** الاجتماع الدولي في **أنابوليس** في نوفمبر 2009م أملاً منهما في التوصل إلى إحياء لعملية السلام الشرق أوسطية. وكانت أمريكا هي صاحبة المبادرة لانعقاد اللقاء والذي لم يسفر للأسف عن نتيجة.

وبعد التدخل الأمريكي في العراق في عام 2003م سيطر التشاؤم على الجميع حيال إمكانية تحقيق الاستقرار في هذا البلد. ولم يكن بمقدور **القاهرة** أو **موسكو** التأثير على تطور الأحداث في المنطقة. وفي عام 2006م تم اختطاف أربعة مواطنين روس في العراق.[99] وأبدت مصر استعدادها لتقديم الدعم للإفراج عنهم إلا أن المحاولات باءت بالفشل وتم قتل الرهائن. كما عانت مصر من مأساة مشابهه حينما قتل متطرفون عراقيون السفير المصري في بغداد. تطابقت المواقف بين البلدين في فترة عصيبة جدًّا حينما تم شن حملة دعائية ضخمة ضد سوريا بعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني **رفيق الحريري**. وكان هدف البلدين هو عدم السماح بزعزعة الاستقرار في المنطقة وخاصة في سوريا. كان موقف البلدين متطابقًا.

وقد تبادل الجانبان الزيارات بشكل منتظم حيث جرى تبادل الآراء حول منظومة عدم الانتشار النووي والبرنامج النووي الإيراني. وفي النصف الثاني من العقد الماضي كانت هناك تهديدات حقيقية بتوجيه ضربة أمريكية إسرائيلية إلى مواقع عسكرية إيرانية. تحدثت القيادة المصرية بشكل مباشر عن المعايير المزدوجة للإدارة الأمريكية في علاقتها بقضية إيران النووية وغض الطرف عن امتلاك إسرائيل للسلاح النووي. كانت هذه السياسة الانتقائية الأمريكية في رأي المصريين تتناقض ومبادئ القانون الدولي ولا تتفق ومساعي البلدين العربية في المنطقة لإخلائها من أسلحة الدمار الشامل. ومن ناحية أخرى فإن امتلاك إيران للقنبلة النووية سيدفع دول المنطقة للسعي لامتلاك السلاح نفسه وهو ما سيؤدي في النهاية إلى صب المزيد من الزيت على الموقف المشتعل أصلاً في المنطقة. وجد الموقف المصري دعمًا وتفهمًا من قِبل **موسكو** عند صياغة موقفها تجاه الأزمة النووية الإيرانية.

وقد أكد المصريون أن رفض **إسرائيل** الانضمام إلى معاهدة عدم الانتشار النووي هو ما يحدد موقفهم من الانضمام إلى اتفاقية حظر الأسلحة الكيماوية. دعمت مصر إخلاء منطقة الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل بما فيها **إيران** و**إسرائيل**. إلا أن **واشنطن** تنصلت من الالتزام بدعم هذه المواقف.

وفي بداية العقد الماضي وفي إطار التعاون المتبادل تم تشكيل مجموعة عمل مشتركة روسية مصرية لمكافحة الإرهاب. [100] وفي تقدير المصريين كانت الشبكة العنكبوتية قد تحولت إلى موسوعة للإرهاب. ومن جانبها كانت روسيا تؤيد هذا الرأي وتشارك في صياغة استراتيجية عالمية في مكافحة الإرهاب في إطار الأمم المتحدة ومجلس الأمن والتعاون الأوروبي ومجلس أوروبا ومجموعة الثمانية.

إلا أنه كانت هناك أيضًا بعض من نقاط الخلاف بين الطرفين. كانت القاهرة تعارض إدراج **موسكو** لجماعة «**الإخوان المسلمين**» على لائحة المنظمات الإرهابية وأن هذه الجماعة هي تنظيم سياسي له ممثلوه في البرلمان المصري. إلا أن قرار القضاء الروسي كان نتيجة مشاركة مقاتلين ينتمون إلى الجماعة في الأحداث في الشيشان. وربما كان هذا قرارًا متسرعًا بعض الشيء إلا أن السلطات الروسية تمسكت به، ولم تقم بإلغائه.

كما بحث الجانبان قضايا مكافحة الإرهاب النووي، واختلفا حول الصياغات المرتبطة بمكافحة الإرهاب رغم التطابق في المواقف بشكل عام.

تطورت العلاقات الثنائية بين البلدين في السنوات اللاحقة وانعكس ذلك في تعدد الزيارات بين مسؤولي البلدين. قام الرئيس المصري **حسني مبارك** بزيارة إلى العاصمة الروسية في 2001م، وكانت تلك خطوة مهمة في مسار التعاون بين البلدين. وتم التوقيع على إعلان مبادئ للتعاون بين البلدين والموافقة على برنامج طويل الأمد لتنمية التجارة والتعاون الاقتصادي والصناعي والعلمي والفني بين البلدين[101]، كما تفتحت آفاق لتذليل العقبات في التعاون بين رجال الأعمال في الجانبين.

وفي أبريل 2005م قام الرئيس **بوتين** بزيارته الأولى إلى الشرق الأوسط ضمت القاهرة والقدس ورام الله.

وساعدت الزيارة على التغلب على حالة الجمود الذي أصاب الاستثمارات المتبادلة بين البلدين. حيث تم إرساء شراكة في مجال الأعمال وإن كانت بشكل محدود. وشارك الجانب الروسي مع الشركات المصرية في تجميع الأوناش والسيارات بالإضافة إلى التعاون في تأسيس شركات التسويق. كانت تلك أولى الثمار للزيارة وكانت ثمار قليلة إلا أنه كانت تؤشر إلى توجه البلدين نحو الشراكة الكاملة. فتح رجال الأعمال المصريون معارض للمنتجات المصرية في روسيا وصالات لبيع الموبيليات والأحذية والملابس. وقام رجل الأعمال المصري إبراهيم

obeikandi.com

كامل باستثمار 250 مليون دولار في إنتاج الطائرة **تو – 204** [102] على الرغم من عدم وصول حجم الإنتاج في هذا المشروع إلى المستوى المأمول. كما افتتحت شركة «**ايجيبت إير**» فروعًا لها في روسيا وكذلك الحال بالنسبة لشركة «**إيجيبت ترافيل**». وناقش الجانبان تأسيس منطقة صناعية روسية خاصة في الإسكندرية لكن المباحثات حول هذا المشروع طالت كثيراً وتم تأجيلها مرات ومرات. كما بدأت اللجنة الحكومية المشتركة للتعاون الاقتصادي والتجاري والعلمي التقني عملها.

ونال التعاون الثقافي دفعة قوية وتمثل في تنظيم المعارض والمهرجانات وحفلات الفرق الروسية ورحلات الكشف والتنقيب عن الآثار. كما تم توطيد التعاون في مجال الخدمات الطبية والتعليمية وغيرها. وفي عام 2006م تم في القاهرة افتتاح الجامعة المصرية الروسية المتخصصة في إعداد الكوادر في تخصصات التكنولوجيا الحديثة. وأصبح لدى الطلاب الروس فرصة التعلم في جامعة الأزهر. ومع نهاية العقد الماضي تشكلت جالية روسية كبيرة تضم حوالي 15 ألف (أفراد الأسر من الزواج المختلط بين الروس والمصريين ومواطنون روس مقيمون بمفردهم).

كما تطورت العلاقات الروحية والدينية بين رجال الدين في البلدين مع افتتاح العديد من المؤسسات وتدشين عدد من المنتديات الدينية في نهاية القرن العشرين. وقد لعب **البطريرك ألكسي الثاني** بطريرك موسكو وعموم روسيا دوراً كبيراً في ذلك حيث زار القاهرة في عام 2010م. ولا يمكن أن نغفل الدور الذي لعبه أيضًا بطريرك الإسكندرية وإفريقيا **فيودور الثاني** وممثل الكنيسة الروسية الأرثوذكسية في مصر **ليونيد جورابتوشف**. وسعت المؤسسات المصرية الدينية كالكنيسة المصرية وجامعة الأزهر إلى دعم التعاون الثنائي. حيث شاركت المؤسستان في إعداد وتنظيم الجلسات السنوية لمنتدى «**حوار الحضارات**» الدولي.

كما مثلت الزيارة التى قام بها رئيس الوزراء المصري **أحمد نظيف** إلى **موسكو** في 2008 دفعة جديدة. حيث ناقش الجانبان فرص التعاون العسكري. تم تأسيس لجان ثنائية للتنسيق. كان الجيش المصري ما زال يستخدم الأسلحة السوفيتية، وكانت هناك حاجة إلى تحديثها أو إصلاحها.

ورأى الجانب المصري أن هناك آفاقًا للتعاون في مجال الفضاء المدني والعسكري. وتم بحث العديد من القضايا ومنها النقل الجوي وتدشين خط ملاحي مباشر ومساهمة الشركات الروسية في تطوير وتحديث السكك الحديدية المصرية.

واعتبرت الحكومة المصرية من أولوياتها بحث الشـراكة في مجال استغلال الطاقة النووية في الأغراض السـلمية. ووقعت الحكومة المصرية اتفاقية تعاون حكومي مع روسيا في هذا المجال. إلا أن الأمر لم يكن سـهلاً. كان من الضروري الاتفـاق على موقع محطة الطاقة الكهربائية النووية وقدرة المفاعلات والأمور المالية والقانونية. وفي مارس 2008 تم في **موسـكو** التوقيع على اتفاقية التعاون في مجال الاسـتخدام السلمي للطاقة الذرية[103] إلا أنه تم تأجيل المصادقة على الاتفاقية حيث اشتدت في تلك الفترة المنافسة الدولية في مجال الطاقة النووية.

وتم تخفيف نظام التأشـيرات بين البلدين ثم تم إلغاؤه لاحقًا في النهاية وجرى التنسـيق في ذلك بين وزارتي العدل في البلدين.

ومع بداية العقد الحالي توجت الاتصالات التجارية والاقتصادية بين روسيا ومصر بالنجاح حيـث ارتفع حجم التبادل التجاري بين البلدين من 0.4 مليار دولار في عام 2000م إلى 2.1 مليـار دولار ثم إلى 4 مليـارات دولار في 2010م بعد ضم قطـاع الخدمات ومنها السـياحة. وفي عام 2010م بلغ عدد السـياح الروس الوافدين إلى مصر حوالي 2.5 مليون سائح.

ومن أهم الصادرات الروسـية إلى مصر القمح والصناعات المعدنية والسيارات والمعدات. ودار حديث عن مشـاركة الشركات الروسـية في المنطقة الصناعية الخاصة حيث سيتم تقديم تسهيلات جمركية وتسـهيلات. غير أن المباحثات حول هذا الموضوع طالت كثيراً نظرًا لعدم جاذبية المشـروع أو توفـر معلومات كافية عنه بالإضافة إلى قـدرات رجال الأعمال الروس المحدودة.

وقام الرئيس **مبارك** بزيارة إلى **موسـكو** في مارس 2009م وهو ما عكس الطابع الدوري المنتظم للاتصالات على أعلى مستوى بين البلدين.

وفي 23 يونيو 2009م قام الرئيس الروسـي **ديمتـري ميدفيديف** بزيارة إلى مصر وقَّع خلالها معاهدة الشـراكة الاستراتيجية بين روسـيا ومصر[104] وعلى الرغم من عدم التصديق على هذه الوثيقة حتى الآن إلا أنها أصبحت من الناحية العملية أساسًا للتعاون بين البلدين. تفهم الجانبان ضرورة توفير الظروف لجذب الاسـتثمارات المشتركة في البنية الأساسية وخاصة في مجال الطاقة التقليدية والمصادر البديلة والإسكان والنقل وتكنولوجيا الاتصالات والسياحة. كما أكدت المعاهدة على أهمية التعاون العسكري والفني من منطلق المصالح المتبادلة والتزامات الجانبين الدولية.

ومن بين أهـــم محاور التعاون بين البلدين المجال العلمي والتقني بما فيه التعاون في مجالات التكنولوجية المتقدمة والطاقة الذريـــة والاتصالات وإطلاق الأقمار الصناعية لأهداف تجارية والطب والأدوية. وشـــهدت الفترة الأخيرة إقدام الشركات الروسية العاملة في قطاعات البناء والبنوك والتأمين والنقل على الدخول إلى السوق المصرية.

وشهد العقد الماضي توقيع العديد من الاتفاقيات الحكومية بين البلدين لتجنب الازدواج الضريبي ومنح كل دولة للأخرى وضعية الدولة الأولى بالرعاية.

غـــير أن حجم الاســـتثمارات المتبادلة ظـــل أقل من المتوقع. وغابت الاســـتثمارات عن قطاعات بأكملها. كما كان حجم التبدل التجاري المتنامي بين البلدين أقل بكثير من حجم التبادل بين مصر والدول المتقدمة الأخرى. وكانت هناك أســـباب موضوعية لذلك تمثلت في تخلف الصناعات الروسية عن نظيراتها الغربية وعدم توفر الخبرة التنافسية اللازمة لدى الشركات الروسية. كل هذا أدى إلى تحجيم نمو التبادل التجاري على الرغم من الارتفاع المستمر.

واستمر التعاون بين البلدين حتى أثناء الأزمة المالية العالمية في عامي 2008-2009م. غير أن القيـــادة المصرية رفضت الاعتراف بالتهديدات السياســـية والاجتماعية التي تلوح في الأفق التى ســـتؤدي إلى تحـــولات كبيرة في مصر والعالم العربي وســـتترك أثرها على العلاقات الروسية العربية بأكملها. وكانت الدبلوماسية الروسية وجهاز المخابرات الروسي وحتى الدوائر العلمية الروسية على قناعة تامة بوجود دلائل على قرب حدوث أزمة سياسية في مصر وغيرها من البلدان العربية إلا أنها رفضت الإيحاء بنيتها التدخل في شؤون هذه الدول الداخلية.

«الورقة الروسية الرابحة في الشرق الأوسط»

وضع **أندريه كريتس**[1] هذا العنوان لمقالته عن العلاقات الروسية السورية[105]. ونشير هنا إلى أن المقالة صدرت قبل التدخل العســـكري الروســـي في سوريا بخمس سنوات. ولم يقم المؤلف بتحديد ما هي تلك الورقة الرابحة وذلك عن عمد. ولكن من الواضح جدًّا أن الحديث يدور

١ أندريه كريتس. تلقى تعليمه في تخصص القانون الدولي وتاريخ أوروبا في جامعة كراكوف في بولندا وفي مجال السياسة المقارنة مجال العلاقات الدولية من جامعة تورنتو بكندا حيث حصل على درجة دكتوراه في العلوم. وعمل بالتدريس في جامعة ماونت رويال حتى عام ٢٠١٠م. ومن مؤلفاته Vatican Policy on the Palestinian-Israeli Conflict: The Struggle for the Holy Land (New York, Greenwood, 1990); Russia in the Middle East: Friend or Foe (Westport, Praeger Security International, 2007).

obeikandl.com

عن سوريا. يمكن أن نطلق على هذا البلد «**الولد الرابح**» أو « **البنت الرابحة**» في السياسية الروسية في المنطقة.

واستمرت هذه العلاقة الروسية بسوريا طوال عقدين بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. ويجب التذكير هنا بأن سورية كانت البلد الثاني بعد مصر الذي تم إرسال قوات روسية إليه ففي الثمانينيات من القرن الماضي، وبلغ قوامها كتيبتين من قوات الدفاع الجوي[106] فضلاً عن خبراء عسكريين سوفييت في مختلف الأسلحة الأخرى.

وبعد انسحاب مصر من المواجهة العربية مع إسرائيل حدث تقارب وتعاون سياسي وعسكري وثيق بين سوريا والاتحاد السوفيتي. حيث وقعت مصر اتفاقية سلام مع إسرائيل وبدأت تدور في فلك الولايات المتحدة الأمريكية. وفي ظل غياب البديل الكافي لمصر سعى الاتحاد السوفيتي إلى توطيد علاقاته بالعراق والجزائر واليمن الجنوبي وسوريا. ونشير هنا إلى أن الاقتصاد لم يكن أبدًا المحرك للعلاقات مع سوريا. فقد تجاوز حجم التعاون التجاري والاقتصادي مع العراق نظيره مع سوريا وغيرها من البلدان العربية الأخرى.

وفي أثناء حكم **جورباتشوف** قام الرئيس **حافظ الأسد** بثلاث زيارات رسمية إلى **موسكو** كان آخرها في أبريل 1990م. وبدلاً أن يلتقي بزعيم دوله عظمى وجد نفسه أمام شخص مشوش عاجز عن صياغة استراتيجية واضحة للسياسة الروسية في المنطقة وأخذ يطلب من الأسد النصيحة كيف له أن يحكم بلد في فترة صعبة كهذه.

ثم مرت سنوات انشغلت فيها القيادة الروسية عن سوريا، فقد كان الروس في بداية التسعينيات منشغلين بما لديهم من مشكلات داخلية ومتأثرين بفقدان 14 جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق كانت كل منها تبحث عن إثبات هويتها الدولية السياسية والاجتماعية الخاصة بها.

تم تجميد العلاقات مع سوريا ورحل الخبراء الروس وبقيت سوريا مدينة لروسيا بقروض ضخمة. لم يكن لدى الروس القوة ولا الإرادة ولا الموارد التى يمكن إنفاقها هناك. ربما تواصلت العلاقات الثقافية وبعض التبادل الاقتصادي وفق ظاهرة الدفع الذاتي. تم التوقيع على عدد من الاتفاقيات لتوطيد التعاون الاقتصادي والتجاري والعلمي ولتجنب الازدواج الضريبي والاستفادة من الطاقة الذرية سلميًّا واستكشاف النفط والغاز ومشروعات الري. كما تم استئناف المنح الدراسية للطلاب السوريين في الجامعات الروسية. وفي عام 2001م بلغ حجم التبدل التجاري بين البلدين 163 مليون دولار.

وانتعشت العلاقات السياسية نسبيًّا، ويرجع الفضل في ذلك إلى مساعي **يفجيني بريماكوف** وزير الخارجية حينها بضم سوريا إلى المفاوضات الجارية لتسوية قضية الشرق الأوسط. وقد أثار ذلك اهتمام إسرائيل ولكنه لم يؤت بأي ثمار تذكر. قبل ذلك كانت إسرائيل قد ضمت مرتفعات الجولان السورية وشرعت في تعميرها.

وزار الرئيس **الأسد** المريض **موسكو** في يوليو 1999م إلا أن الزيارة لم تأت بنتيجة مهمة، وتضمن البيان الختامي المشترك جملاً عامة فضفاضة.

وفي تلك الفترة كانت سوريا تعيش مشكلات داخلية، حيث أثيرت قضية خلافة **الأسد**. وتم نفي **رفعت الأسد** إلى الخارج بعد محاولة انقلابية وتم إعداد الابن الأكبر **باسل** لتولي السلطة بعد أبيه إلا أنه قتل في حادث سيارة في عام 1994م. وعندها استدعى **حافظ الأسد** ابنه الثاني **بشار** الذي كان يدرس الطب في إنجلترا. وتم تأهيله ليصبح قائدًا وزعيمًا سياسًّيا وعسكريًّا، ونقل السلطات إليه تدريجيًّا. كان ميزان القوى في قيادة حزب البعث على نحو يجعل نقل السلطة من الأب إلى الابن أمرًا يسيرًا.

وسعى **بشار الأسد** إلى الخروج ببلاده من العزلة الدولية وإقامة علاقات مع أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية ومع جارته تركيا. إلا أن المشكلة مع إسرائيل بقيت دون حل. والجدير بالذكر أنه رغم ذلك فلم تحدث أي صدامات عسكرية بين الجانبين أثناء حكم **الأسد الأب** والابن وهو ما كان مرضيًا للطرفين. إلا أنه لم تستطع أي حكومة سورية القبول بضم إسرائيل للجولان.

كانت مشاعر الكراهية لإسرائيل والنقد الحاد لحلفائها والعلاقات القوية بين سوريا وإيران من أسباب زيادة الشقاق بين الولايات المتحدة الأمريكية والنظام البعثي في سوريا. رفضت إسرائيل وأمريكا التواجد العسكري السوري في لبنان، حيث دخلت القوات السورية إلى هناك في عام 1989 بموجب اتفاق الطائف بهدف وقف الحرب الأهلية هناك. وحافظت سوريا على موقفها المستقل وظلت تتردد من دمشق شعارات وخطابات معادية للإمبريالية.

وبدا لكثيرين أن عام 2003م والذي شهد احتلال أمريكا للعراق سيشهد احتلالاً آخر لسوريا. وتحدثت وسائل الإعلام الغربية عن ذلك، إلا أن الغرب لم يجد الحجة والمبرر للقيام بذلك. كانت الادعاءات التى قام عليها احتلال العرق كلها مزيفة وكان الوضع هناك يسوء يومًا بعد يوم.

obeikandi.com

ظلت **موسكو** تدعم دمشق طوال الوقت. وكانت **واشنطن** تكتفي بالحديث عن نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط دون ذكر لأي استخدام لقوة لفرضها. وفي نفس الفترة كانت **موسكو** تصيغ سياستها المستقلة تدريجيًا تجاه المنطقة سعيًا منها للإبقاء على نفوذها في القضايا الدولية، وبدأت رحلة العودة إلى الشرق الأوسط، حيث تهيمن الولايات المتحدة الأمريكية بشكل كامل.

وكانت سوريا البلد العربي الوحيد الذي عارض علانية الهيمنة الأمريكية. ووافق الكونجرس الأمريكي على قرارات ضد سوريا، واشتدت الدعاية الغربية ضدها، وهو ما أحدث تقاربًا ملحوظًا بين **موسكو** و**دمشق**.

فلماذا كانت روسيا في حاجة إلى سوريا؟ هناك عدد من الأسباب والعوامل كل منها على قدر كبير من الأهمية، ويختلف ترتيبها من وفقًا للفترة الزمنية. وأهم هذه العوامل المصالح السياسية الاستراتيجية وإقامة علاقة تحالف مع دولة مهمة في المنطقة ودعمها، وعدم السماح بأي تدخل عسكري أجنبي فيها.

وساعد وجود نظام علماني على رأس السلطة في سوريا حدوث التقارب بين هذا البلد والاتحاد السوفيتي ومن بعده روسيا. بلغ عدد أعضاء اتحاد خريجي الجامعات الروسية في سوريا حوالي 35 ألف عضو. فضلاً عن عشرات الآلاف ممن أنهوا الدراسة في المدارس العسكرية الروسية والسوفيتية. كان الجيش السوري مجهز بعتاد روسي بالكامل تقريبًا. ويقيم في سوريا أكثر من 15 ألف امرأة روسية متزوجات من سوريين وبطبيعة الحال نشأ أطفالهن في أسر مختلطة.

لم تكن سوريا تمثل تهديدًا إسلاميًا لروسيا في الفترة التي شهدت الحرب في القوقاز حينما تدفقت الأموال والمتطوعون من بلدان عربية أخرى. وقد دعمت روسيا علاقاتها ببلدان العالم العربي والإسلامي على المستوى الرسمي والحكومي بغض النظر عن الأنظمة الحاكمة بهدف تجنب التعرض لتهديدات الجماعات الإسلامية المتطرفة. وكانت هناك علاقات تربط روسيا بالجميع سواء بالمملكة العربية السعودية وبلدان الخليج العربي أو سوريا ذات النظام العلماني ومصر الحليفة للولايات المتحدة الأمريكية.

وبشكل عام كانت السياسة الروسية في المنطقة تتسم بكونها رد فعل على تطورات الأوضاع في المنطقة أو على سياسات لاعبين آخرين. أما المبادرات الروسية فكانت من قبيل

obeikandi.com

تجميل الذات. كانت هناك أخطاء سياسية ارتكبتها واشنطن أيضًا وأثارت حالة من الكراهية والعداء لأمريكا في المنطقة، وكانت النخب المحلية تعي مصالحها وهو ما سمح لروسيا وعدد من بلدان الشرق الأوسط بتحديد أهدافها والسعي للتقارب.

كما مثَّل الموقع الاستراتيجي لسوريا على البحر المتوسط عامل جذب لروسيا ولبناء قاعدة عسكرية لها هناك وهو ما تم بالفعل بمدينة **طرطوس** ما عكس نهضة للأسطول البحري الروسي. كانت العلاقات الاقتصادية بين البلدين أقل من المستهدف ولم يكن لها تأثير كبير. لكن الجميع في سوريا كانوا على قناعة بأنه إن كان من نجاحات اقتصادية لسوريا في السابق فهي بفضل التعاون مع الاتحاد السوفيتي. حيث شهدت تلك الفترة بناء سد على نهر الفرات ومحطة كهرباء وخزان مياه ضخم ومضاعفة مساحة الأرضي الزراعية.

ولم يكن الخيار السوري سهلاً على القيادة الروسية نظرًا لردة الفعل المتوقعة من جانب إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. كما لم تكن النخبة الروسية مجمعة على موقف واحد من التعاون مع سوريا. كانت قوى اليسار وعدد من الجنرالات الذين ما زالت تربطهم علاقات قديمة بالعسكريين السوريين ترى ضرورة إرساء علاقات تعاون مع سوريا وغيرها من البلدان العربية. إلا أن هناك الكثير أيضًا من المعارضين.

كتب عضو مجلس **الدوما** (**البرلمان**) الروسي عن الحزب الشيوعي الروسي **ف. تيتيوكين**: «تسبب الصمت الروسي في السنوات الأخيرة إلى تعرض سوريا لحملة شرسة من قبل واشنطن وتشويه في وسائل الإعلام الغربية والأمريكية. وفي الإعلام الروسي إما أن تذكر سوريا بالسلب أو لا تذكر على الإطلاق. وقد لقيت زيارة **الأسد** إلى **موسكو** في عام 2005 معارضة شديدة من قبل قيادات في الدولة الروسية تراهن على الصداقة مع إسرائيل»[107].

وقد جرت أول زيارة للرئيس **بشار الأسد** إلى روسيا في يناير 2005 وتمثل انطلاقة جديدة لاستئناف العلاقات التاريخية بين البلدين. والتقى **الأسد** مع الرئيس **بوتين** ووصف الجانبان هذه الزيارة بالناجحة. وقامت روسيا بإسقاط 73% من الديون على سوريا والتي كانت تبلغ حينها 13. 4 مليار دولار. [108] وانتقد الرئيس **بوتين** بشكل مقنع السياسة الأمريكية والإسرائيلية في تعاملهما مع سوريا. غير أن ذلك لم يكن يعني على الإطلاق أن هناك مشاعر عدائية تجاه إسرائيل بين قيادات **الكرملين**.

كانت زيارة **الأســد** إلى **موســكو** في عام 2005م في الواقع مرحلة تاريخية جديدة في علاقات البلدين، حيث كانت السياســة الإسرائيلية تسعى إلى ضمان هيمنة عسكرية مطلقة في المنطقة وإضعاف سوريا حتى تعجز تمامًا عن امتلاك قدرات دفاعية. كانت القيادة السورية منذ الحقبة الســوفيتية تســعى إلى تحقيق التوازن العسكري مع إســرائيل التي كانت الولايات المتحدة الأمريكية تمدها بأحدث أنواع الأسلحة في حين لم يقم الاتحاد السوفيتي بالأمر نفسه مع ســوريا. كان **الأسد** يهدف من الزيارة إلى دعم قدراته الدفاعية فحسب وهو ما تفهمته روسيا، وعملت على تحقيقه.

و يؤكد الجنرال المتقاعد **ليونيد ايفاشــوف** هذه الحقيقة قائلاً: «إن التعاون العسكري بين روسيا وبلدان الشرق الأوسط والعالم العربي وإيران يجري تحت رقابة وتوجيه من تل أبيب»[109].

ولم توافق روســيا على توفير كل احتياجات سوريا من الأســلحة. كتب **ف. تيتيوكين**: «فيما يتعلق بالصواريخ التكتيكية (**إســكندر–أ**) فقد رفض أصدقاء إســرائيل بيعها لسوريا بشده. واليوم ها هو الجنرال الإسرائيلي **أ. ابراموفيتش** المدير العام بالخارجية الإسرائيلية يصل إلى **موسكو** في نفس توقيت زيارة الأسد إليها (ديسمبر 2006)» [110]

وفي أغسطس 2008م رفضت **موسكو** طلبًا من **الأسد** بشراء صواريخ (**إسكندر أ**) التى يبلغ مداها 400–280 كم، والقادرة على حمل رؤوس نووية وتقليدية.

وبعد زيارة **الأســد** إلى **موســكو** في عام 2005 تطور التعاون الاقتصادي بين البلدين بوتيرة متسارعة. وبلغ حجم التبادل التجاري 560 مليون دولار ثم ارتفع إلى 2 مليار في عام 2008م. [111] ثم انخفض في سنوات الأزمة المالية العالمية ثم ارتفع مجددا.

وضمت قائمة المنتجات الروســية إلى ســوريا الســيارات والبتروكيماويــات وقطع الغيار لمحطات الطاقة الكهربائية والأوناش والشــاحنات كما قام الجيولوجيون الروس باستكشــاف النفط والغاز في سوريا وتم بناء مصنعين لتكرير الغاز، وبالطبع تطور التعاون العسكري والتقني. وظهر العشرات من الخبراء الروس في الجيش فضلاً عن ضباك يعملون في الأكاديميات. وقبل 2006م لم تكن روســيا تصدر أسلحة حديثة إلى ســوريا إلا أنها قدمت دعمًا في تحديث وإصلاح المعدات العســكرية وتأهيل الضباط. وبعد 2006م ضاعفت ســوريا من قدراتها الدفاعية بفضل المنظومات الروسية متوسطة المدى.

وبشكل عام تم تحجيم التعاون العسكري نظرًا لعدم رغبة روسيا في الإخلال بتوازن القوي في المنطقة؛ ولذا وعلى الرغم من مطالب القيادة السورية بشراء المنظومة الصاروخية الروسية **إس – 300** امتنعت روسيا عن الإقدام على هذه الخطوة أو عن تصدير بعض منظومات الصواريخ الأخرى.

كانت روسيا تواجه تهديدًا من نوع جديد. ففي فبراير 2005م اغتيل رئيس الوزراء **رفيق الحريري** في بيروت وكان من أشد معارضي الوجود السوري في لبنان، وسارعت وسائل الإعلام الغربية وعدد من وسائل الإعلام العربية باتهام سوريا بالوقوف خلف هذا الحادث.

وقد شهدت لبنان العديد من حالات الاغتيالات ضد الزعماء السياسيين. وتعددت الأسباب التى أدت لذلك ومنها الديني والسياسي والمادي أو لأسباب شخصية محضة. وربما شارك أحد السوريين في هذه الجريمة إلا أن كل أصابع الاتهام تم توجيهها إلى سوريا وإلى رئيسها شخصيًا.

وما عقَّد من الموقف أن أسرة **الحريري** كانت ترتبط بعلاقات اقتصادية وطيدة مع العائلة المالكة في السعودية، وكان الحريري صديقًا شخصيًا للرئيس الفرنسي جاك شيراك، وكان لفرنسا نفوذ كبير في سوريا ولبنان.

وأصدرت الأمم المتحدة قرارها بتشكيل لجنة برئاسة الألماني **د. ميخليس**. وبضغوط من قبل أعداء سوريا في الغرب ووسائل الإعلام تبنت هذه اللجنة الموقف المحدد سلفًا والمعادي لدمشق وهو ما أثار انتقاد **موسكو**. إلا أنها كانت مضطرة إلى الموافقة على القرار لإحداث انفراجه في المشهد. ووافق مجلس الأمن في قراره رقم 1636 الصادر في نوفمبر 2005م على مطالبة سوريا بسحب قواتها من لبنان، وهو ما تم بالفعل لاحقًا. وساعد الموقف الدبلوماسي الروسي الداعم لسوريا على تجنب فرض عقوبات ضدها من قبل المجلس[112].

غير أن هناك حليفًا قويًا لسوريا بقي في لبنان ألا وهو حزب الله الشيعي الذي ضاعف من نفوذه، وقدراته العسكرية خلال الحرب مع إسرائيل في عام2006م التي فشلت خلالها إسرائيل في التقدم ولو قليلاً داخل الأراضي اللبنانية على الرغم من تسبب الضربات الجوية الإسرائيلية في تدمير للبلاد وخسائر ضخمة بين المدنيين. وأرجعت القيادة الإسرائيلية فشلها إلى أن حزب الله اللبناني يستخدم السلاح الروسي الذي اشترته سوريا من روسيا سابقًا.

ودوليًّا أظهرت سـوريا تضامنها مع روسـيا، وكانت ثاني دولة بعد روسـيا البيضاء تؤيد العمليات العسـكرية الروسـية في جورجيا عندما هاجمت قوات الرئيس **ساكاشفيللي** جنود حفظ السـلام الروس وقامت بجرائم تطهير عرقي في **أوسيتيا** الجنوبية. وأدى الفشل الجورجي إلى إعلان **أوسيتيا** الجنوبية و**أبخازيا** استقلالهما عن جورجيا، وهو ما أثار موجة احتجاجات شديدة ضد روسيا من جانب أمريكا والغرب.

وتعتـبر الزيارة التي قام بها الرئيس **دميتري ميدفيديف** إلى سـوريا 2010م أحد مظاهر الدعم الروسي القوي دبلوماسيًّا سياسيا. حيث قام الجانبان باستعراض علاقاتهما القوية أمام العالم ووافق الرئيس الروسـي على الرؤى السـورية تجاه التسـوية الشرق أوسطية ما دعم من موقف القيادة السورية والمكانة الدولية لسوريا. كما تمت أثناء الزيارة الدعوة إلى تحويل الشرق الأوسط إلى منطقة خالية من السلاح النووي، وهي الدعوة التي لم تحظَ بأي رد فعل من قبل إسـرائيل. والتقى **ميدفيديف** في دمشـق بزعيم حركة حماس **خالد مشعل**. [113] وأثارت هذه الاتصالات الشكلية حنق إسرائيل وحفيظتها، وكذا الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن غير المستبعد أن الرئيس السوري لم يكن قانعًا بالتعاون مع روسيا وحدها وأن قنوات أخرى للاتصال قد تم فتحها بين سوريا والولايات المتحدة الأمريكية ودول الغرب.

واستجابة لمبادرة واشنطن، وافقت سوريا على المشاركة في المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسـط في مدينة **أنابوليس** في عام 2007م. وانتهت الاجتماعات دون تحقيق نتيجة إلا أن الغرب فهم الإشارة السورية. وفي يوليو 2008م دعا الرئيس الفرنسي **نيكولاي ساركوزي** الرئيس **بشـار الأسد** للمشاركة في احتفالات تدشين اتحاد دول البحر المتوسط. وفي سبتمبر 2008م قام **سـاركوزي** بزيارة إلى دمشـق، والتقى خلالها بالرئيس السـوري ورئيس الوزراء التركـي **رجب طيـب أردوغان** وأمير قطر **حمد بن خليفة آل ثاني**. وفي مايو 2010م عاد السـفير الأمريكي إلى دمشق بعد خمس سنوات من الغياب. ولكن ومع استئناف العلاقات بين البلدين بقيت العقوبات الأمريكية ضد سوريا قائمة منذ مايو 2004م؛ بل وقام الرئيس **أوباما** بتجديدها. [114]

وكان من الممكن إرسـاء علاقات قوية بين سوريا والغرب، فقد كانت الدول الغربية تقبل بالنظام البعثي في سـوريا كما هو. أملاً أن يأتي الوقت الذي يتحول فيه إلى الليبرالية. إلا أن اندلاع ثورات الربيع العربي وإمكانية التخلص من الأنظمة السابقة في المنطقة وخاصة المعادية للغرب كانت فرصة لا يمكن التفريط فيها بأي حال.

(Endnotes)

1 يفجيني بريماكوف، ســري للغاية. الشرق الأوسط على مســرح الأحداث وخلف الكواليس، موسكو، 2012،ص. 332

15 www. newsru. co. il. 6. 05. 2006

3 https://ru. wikipedia. org/wiki/Мюнхенская_речь_Владимира_Путина

4 الدورية الدبلوماسية، 2009، العدد 10، ص. 57

5 Politiken (on-line). Copenhagen. July 18, 2002

6 Iraq Report // RFE/RL. Vol. 4, № 40 (December 7, 2001).

7 Peterson Scott. Russia rethinks its longtime support for Iraq // Christian Science Monitor. March 13, 2002.

8 RFE/RL Newsline. Vol. 6, № 132 (July 17, 2002).

9 انترفاكس. 17 يوليو 2002م

10 https://ru. wikipedia. org/wiki/Иракская_война

11 المرجع السابق

12 ww. svoboda. org/content/article/27551236. html

13 بريماكوف، مرجع سابق، ص 328-329

14 المرجع السابق

15 https://ru. wikipedia. org/wiki/Международные_коалиционные_силы_в_Ираке

16 http:/www. ural. ru/business/press/783. html

17 Hong Kong Te Kung Pao (Internet Version) // FBIS-SOV-2003-0407

18 إيفان بافل، مستقبل روسيا في قمة الثمانية، المصلحة الوطنية. 28 مايو 2003م

19 انترفاكس، 24 ابريل 2003م

obeikandl.com

20 www. golos-ameriki/content/a-33-2006-12-07. . . /637716. html

21 https://ru. wikipedia. org/wiki/Человеческие_жертвы_в_Иракской_войне

22 المرجع السابق

23 كاسايف إ. ، نشاط الأعمال الروسي النفطي في العراق، آسيا وإفريقيا اليوم، 2013، العدد 5، ص. 37

24 http://www. lukoil-overseas. ru/press-centre/3999. php

25 مقابلة صحفية مع ب. ستيجني، مارس 2015م

26 http://www. mid. ru/maps/tr/-/asset_publisher/Fn23Klb76LY2/content/id/432284/pop_up?_101_INSTANCE_Fn23Klb76LY2_viewMode=tv&_101_INSTANCE_Fn23Klb76LY2_qrIndex=0

27 تاريخ العلاقات الروسية التركية، ريا نوفستي، 13 يناير 2010م

28 جوريف أ. ، الوضع في تركيا: نوفمبر 2008// معهد الشرق الأوسط. 14 ديسمبر 2008 م .

29 كودرياشوفايو. ، تفعيل العلاقات الروسية التركية: الحاضر والمستقبل، دورية جامعة العلاقات الدولية في موسكو، 2012م، العدد 5، ص. 38

30 تاريخ العلاقات الروسية التركية، ريا نوفستي. .

31 بيلييف أ. ، آفاق جديدة للتعاون الروسي التركي، الشرق الأوسط والمعاصرة، موسكو، معهد الشرق الأوسط،2009م، ص. 40-39

32 كودرياشوفا، مرجع سابق، ص. 40-39

33 شابخاروف ر. ، التعاون الروسي التركي في مجال الطاقة//موسكو، جامعة موسكو للعلاقات الدولية، 2014،ص. 246

34 كالاشنيكوف أ. ، ''السيل الأزرق'' كعامل لتطوير العلاقات الروسية التركية// السلطة، 2013، العدد 2، ص. 101-100

obeikandl.com

35 http://archive. mid. ru/bdomp/spd_md. nsf/0/698FD49 D7286689B43257F5F00206FC1

36 كودرياشوفا، المرجع السابق، ص. 43

37 بيلييف أ. ، المرجع السابق، ص. 218

38 جوروييف أ. ، المرجع السابق

39 بيلييف أ. ، المرجع السابق، ص. 221-209

40 Turkey´s Political Relations with Russian Federation // Republic of Turkey. MinistryofForeignAffairs - http:// www. mfa. gov. tr/turkey_s-political-relations-with-russian-federation. en. mfa

41 http://archive. mid. ru

42 http://archive. mid. ru

43 http://archive. mid. ru

44 همشري. 25 يونيو 2013، باللغة الفارسية

45 http://www. regnum. ru/ntws/polit/1707429. html

46 ساجين ف. ، القدرات النووية الصاروخية لإيران، موسكو، جامعة موسكو 2011، ص. 34-33

47 أرباتوف أ. ، الاتفاقية النووية مع إيران، الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية، 2016، العدد 3، ص. 6

48 العلاقات الروسية الإيرانية: الفرص والتحديات، المجلس الروسي للعلاقات الدولية، موسكو، 2014، العدد 14،ص. 12

49 مقابلة صحفية مع ب. ف. ستيجني، سبتمبر 2014م

50 مقابلة صحفية مع إ. ايفانوف، سبتمبر 2014م

51 المرجع السابق

52 العلاقات الروسية الإيرانية : الفرص والتحديات، مرجع سابق

53 مقابلة صحفية مع إ. ايفانوف، سبتمبر 2014م

54 أرباتوف أ. ، المرجع السابق، ص. 10

obeikandl.com

55 المرجع السابق

56 يوتيايف ف. ، سمات السياسة الإيرانية في الفترة بين عامي 2010-1979م، موسكو، جامعة الصداقة بين الشعوب، 2012م، ص. 244

57 http://www. kremlin. ru/news/46686

58 راجع: اتفاقية التعاون بين روسيا وكازاخستان بتاريخ 6 يوليو 1998 حول ترسيم أعماق بحر قزوين والبروتوكول الإضافي الموقع في 13 مايو 2002م والاتفاقية الموقعة بين روسيا وأذربيجان حول ترسيم الحدود في بحر قزوين بتاريخ 14 مايو 2003م

59 ايفانوف أ. م. قمة بحر قزوين الطارئة// الغرب – الشرق – روسيا 2014م، حولية ، موسكو،2015م،ص. 105

60 IMF. World Economic Outlook. October 2013. P. 75 – http://www. imf. org/external/pubs/ft/weo/2013/02/pdf/text. pdf

61 http://www. iimes. ru/?p=17765

62 http://www. iimes. ru/?p=17765

63 العلاقات الروسية الإيرانية. . . ص. 33

64 المرجع السابق. ص. 36

65 بارزيجار كايخان، الضرورة الإستراتيجية// روسيا في السياسة العالمية، العدد 1، يناير – فبراير 2014م

66 لقاء صحفي مع م. كوناروفسكي بتاريخ 14 مارس 2016م

67 Rubinstein Alvin A. Red Star on the Nile: The Soviet-Egyptian Influence Relationship since the June War. Princeton, NJ: Princeton University Press. 1977, p. 147.

68 لقاء صحفي مع يو. شافرانيك بتاريخ مارس 2015م

69 Dawisha Karen. Soviet Foreign Policy towards Egypt. London, Macmillan. 1979. P. 68.

70 يورتشينكو ف. ، مصر: قضايا الأمن القومي، موسكو، معهد أبحاث إسرائيل والشرق الأوسط، 2003،ص. 65

obeikandl.com

71 المرجع السابق

72 Dawisha Karen. Op. cit. , p. 68.

73 دوبرينين أ. ، سفير في واشنطن يعاصر ستة رؤساء (1962-1986)، موسكو، 1996، ص. 434

74 Freedman Robert O. Moscow and Middle East: Soviet Policy since the Invasion of Afghanistan. Cambridge: Cambridge University Press. 1991, p. 129.

75 Hinnebusch Raymond. The Foreign Policy of Egypt // The Foreign Policies of Middle East States / R. Hinnebusch and A. Ehteshami, eds. Boulder, CO: Lynne Reinner. 2002, p. 109.

76 يورتشينكو ف. ، مرجع سابق، ص. 97-98

77 Freedman Robert O. Op. cit. , p. 331.

78 كوميرسانت. 11 ديسمبر 1997م، ص. 4

79 وكالة انترفاكس. 17 أكتوبر 2005م

80 SalamaA. Salama. Russia Re-visited // Al Ahram Weekly (on-line). № 693. June 3-4, 2004.

81 https://ru. wikipedia. org/wiki/Террористический_акт_в_Беслане

82 http://ria. ru/trend/visit_Putin_Saudi_Arabia_110206

83 http://www. iimes. ru/rus/stat/2010/07-09-10a. htm

84 http://www. riyadh. mid. ru/torgov_econ. html

85 http://izvestia. ru/news/416315

86 Katz Mark N. Will Russia and America be allies in Iraq? // Eurasia Insight. 02. 11. 2004.

87 وكالة الأخبار العسكرية، 17 فبراير 2005م

obeikandl.com

88 المادة مقدمة من سفارة روسيا في الإمارات العربية المتحدة.

89 وكالة أنباء ايتار تاس. 10 مايو 2004م

90 Arabic News (on-line). 20. 04. 1998.

91 Ibidem

92 ايتار تاس. 24 ديسمبر 2001م

93 ايتار تاس. 26 فبراير 2004م

94 انترفاكس. 23 ديسمبر 2004م

95 www. stratfor. com. 24. 05. 2000.

96 The Current Digest of the Post Soviet Press. Vol. 56, № 21 (23. 06. 2004).

97 www. egypt. mid. ru/rerlations/index. html

98 www. egypt. mid. ru/rerlations/index. html

99 http:/rg. ru/sujet/2574

100 www. mid. ru/maps/eg/-/asset_publisher/g1lePFf60c7F. . . /402950

101 www. iimes. ru/rus/stat/2006/13-11-06f. htm

102 www. aviaport. ru

103 http://ria. ru/atomic/20150210/1046924336/html

104 http://docs. cntdl. ru/document/420218888

105 كريتس أ. ، سوريا: الورقة الرابحة لروسيا في الشرق الأوسط، رؤية جدية على روسيا، العدد 55، نوفمبر 2010م

106 gruzdov. ru/wiki/советско-сирийское_военное_сотрудничество

107 تيتيوكين ف. ، لماذا تتعرض سوريا لضغط من الغرب؟// روسيا السوفيتية. 19 ديسمبر 2006م

108 موسكو تلغي 73% من ديون سوريا// انترفاكس. 25 يناير 2005م

109 انترفاكس. 7 سبتمبر 2010م

obeikandl.com

110 تيتيوكين ف. مرجع سابق

111 لقاء وكالة الأنباء السورية مع وزير خارجية روسيا سيرجي لافروف. 4 يونيو 2009م

112 Gazeta. ru. 01. 11. 2015

113 Medvedev, Hamas' Mishaal discuss latest Palestinian state of affairs // KUNA online. 11. 05. 2010

114 Obama renouvelle les sanctions amEricainescentre le rEgimesyrien // France 24. 05. 04. 2010.

obeikandl.com